الإسلام
وقضايا الإنسان المعاصر

الكتاب الثانى

من التراث الإسلامى :

آراء فقهية وآداب إسلامية

إعداد
الأستاذ الدكتور
حسن أحمد الكبير

الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م
الناشر
دار الولاء للتراث بالزقازيق


الله
بسم الله الرحمن الرحيم
وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون
صدق الله العظيم
قرآن كريم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذى أضاء الوجود بنوره ، وهدى المؤمنين إلى طريق الهدى والرشاد ، والصلاة السلام على المبعوث رحمة وضياء للمتقين ، وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهدية واستن بسنته إلى يوم الدين .

وبعد :

فقد سبق أن قدمنا لك - أخى القارئ الكريم - فى سلسلة (الإسلام وقضايا الإنسان المعاصر) الكتاب الأول بعنوان (أحكام إسلامية فى مسائل معاصرة) وقد ضم أسئلة عديدة ، كانت جميعها محل اهتمام الإنسان المعاصر، أجبنا عنها فى يسر وإيضاح ، بما يتفق وكتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ وما جاء فى كتب الأئمة والفقهاء الأوائل ، الذين أسهموا بفكرهم وجهودهم المباركة فى إرساء مبادئ وقيم الإسلام الرفيعة ، وكانوا ضياء ونوراً يهتدى بهم فيما قالوا وما اجتهدوا فيه .

واليوم نقدم لك - عزيزى القارئ - الكتاب الثانى من هذه السلسلة ، وهو بعنوان (من التراث الإسلامى : آراء فقهية وآداب إسلامية) ، وهى آراء واجتهادات ونصائح لبعض العلماء وأصحاب الفكر والحكماء الذين عرفوا بجهودهم ومواقفهم الملتزمة وآرائهم السديدة ، وهى وإن كانت لعالمين وفقيهين جليلين ، وأحد حكماء العرب المشهورين ، فإنهما

ضمت فى ثناياها آراء أخرى لعلماء وحكماء آخرين عاصروا هؤلاء الثلاثة ، واختلطوا بهم ، وافادوا ، واستفادوا منهم .

وهذه المادة قد أذيعت فى (إذاعة نداء الإسلام) بمكة المكرمة فى برنامج : (من الأعلام) ، وذلك أثناء إقامتى بجوار البيت الأعظم ، عندما شرفت بهذه الإقامة ، حيث كنت معاراً من جامعة الأزهر إلى كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى .

ولما كانت هذه الآراء تناقش العديد من قضايا الإنسان المعاصر ، وتدلى بالرأى ، وتبين حكم الشرع فيها ، على أساس من الحيدة الكاملة ، والإنصاف القائم على العدل ، وإحقاق الحق ، كما تقدم النصيحة الجليلة بعد الحنكة والتجربة فى هذه الحياة ، وهذا كله مما لاغنى للإنسان المسلم من الاطلاع عليه ، والاستفادة منه ، لذلك فقد حرصت على أن يجمع فى كتاب يسهل الرجوع إليه، ويتيسر الاستفادة منه .

وأرجو أن يتحقق ما هدفنا إليه ومانبتغيه ، والله من وراء القصد ، وهو الهادى إلى السبيل .

المعادى الجديدة
فى
١٤ من رجب سنة ١٤١٥ هـ
الموافق
١٧ من ديسمبر سنة ١٩٩٤م

أ.د/ حسن أحمد الكبير
عميد كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر بالزقازيق

[١]

الفقيه والقاضي

محمد بن خلف بن حيان

(ت : ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م)

هو القاضي محمد بن خلف بن حيان بن صدقة الضبي الملقب بـ « وكيع » قاض ، باحث ، عالم بالتاريخ والبلدان ، عارف بأيام الناس ، فقيه ، نحوي .

كان خبيراً بأساليب القضاة ، ومناحي أقضيتهم ، ومناهج تفكيرهم ، وطرائق حلهم لما استعصى من القضايا المشتبكة الأطراف والتي تحتاج إلى دقة ولباقة من القاضي ، يستطيع عن طريقها أن يعطي كل ذي حق حقه ولا يحول دون قضائه بالحق تأثير من ذوي سلطان أو رهبة من صاحب ولاية .

والقاضي وكيع أديب وراوية وشيخ من شيوخ أبي الفرج الأصفهاني .

ومن مؤلفاته :

(كتاب أخبار القضاة وتواريخهم) في ثلاثة مجلدات ، وهو مورد للفقيه والقاضي في عبارة طيِّعة وبيان رائع ، وهو حافل بتراجم كثيرين من القضاة ورجال الحديث الذين يعز وجود ترجمة شافية لهم في غير هذا الكتاب كما أنه كتاب أدب ولغة وتاريخ وقصص ، فهو صورة للحياة السياسية ، والأحداث التي كانت تعج بها الدولة الإسلامية في عصورها الأولى .

ومن مؤلفاته أيضاً :

(كتاب الأنواء) ، و (كتاب الشريف) ، و (كتاب عدد آي القرآن

والاختلاف فيه) ، و (كتاب المكاييل والموازين) وغيرها .

و في الصفحات التالية :

نسجل بعض ما جاء في كتابه القيم : (أخبار القضاة) لنتعرف منه على أهمية القضاء ، وخطورة هذا الموقع الذي رفضه أبو حنيفة وكثير من علماء وفقهاء المسلمين لا زهداً وورعاً ، وإنما خوفاً واستثقالاً لعظم المسئولية ، ثم نقف على بعض القضايا التي تصدى لها بعض هؤلاء القضاة ، أمثال أبي هريرة ، والحسن البصري ، وابن شبرمة ، وبلال بن بردة ، وشريح بن الحارث الكندي ، وكيف كانت لهم اجتهاداتهم الميسرة المستمدة من روح الإسلام ومبادئه السمحة في الحكم على هذه القضايا التي تصدوا للقضاء فيها .

١ - امتناع أبي حنيفة عن تولي القضاء :

إن الله عز وجل قد جعل الحكم بين عباده من أرفع الأمور وأجلها خطراً ، ففي القضاء بالحق إظهار العدل ، ورفع الظلم ، وإنصاف المظلوم من الظالم ، وأمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ، ولأجله بعث الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وبه اشتغل الخلفاء الراشدون رضوان الله تعالى عليهم .

يقول الإمام ابن القيم :

« إن الله تعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه » .

فالقضاء ركن هام من أركان الدولة ، وجزء أساسي من مقومات المجتمع وتقع عليه مسئولية حماية الأنفس والأرواح والأموال والحقوق ، ويؤمن الطمأنينة والهدوء والسلام في المجتمع . وبما أن القضاء سلاح ذو حدين ، ويمكن أن يستغل للظلم والجور والتعدى والثأر وجمع الأموال وضياع الحقوق ، فقد حذر رسول الله ﷺ منه ، وبين خطره وعقوبة القائمين به ، فعن عائشة - رضى الله تعالى عنها - أن رسول الله ﷺ قال : « **يأتي على القاضي يومٌ يود أن لم يقض بين اثنين في تمرة** »[1] وفي رواية : « **أن لم يقض بين اثنين في عمره** » . وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة .

وقد حمل بعض العلماء هذه الأحاديث على كراهية القضاء والزهد فيه . يروى لنا القاضي محمد بن خلف بن حيان صاحب كتاب (أخبار القضاة)

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٦ / ٧٥٠

عن عتبة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه عن كعب قال : « بعث عمر إلى كعب إني جاعلك قاضياً ، قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، قال : لم يا كعب ؟ قال : إن القضاة ثلاثة : فقاضيان في النار ، وقاضٍ في الجنة : قاضٍ علم وترك علمه فقضى بجور ، وقاضٍ لم يعلم فقضى بجهالة فهو معه في النار ، وقاضٍ قضى بعلمه ومضى عليه فهو من أهل الجنة ، فقال يا كعب : فإنك قد علمت ، تقضي بعلم وتمضي عليه ، قال : يا أمير المؤمنين أختار لنفسي أحب إليَّ من أن أخاطر بها » .

ويذكر الشيخ ابن وكيع في كتابه (أخبار القضاة) : رواية البيهقي في سننه : أن أبا يوسف قال : لما مات سوار قاضي البصرة دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة من الكوفة ليوليه قضاء البصرة ، فقال أبو حنيفة : « والله الذى لا إله إلا هو إني لا أصلح للقضاء ، ووالله يا أمير المؤمنين لئن كنتُ صادقاً فما يسعك أن تستقضي رجلاً لا يصلح للقضاء ، وإن كنتُ كاذباً فما يسعك أن تستقضي رجلاً كاذباً ، وإنه لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل من العرب » ، فأخذ الخليفة المنصور يناقشه فيما قال ، ويحاول معه ، إلا أن أبا حنيفة تمسك برفضه للقضاء ، فلما رأى أبو جعفر منه ذلك أمر بحبسه ، فمكث في الحبس أياماً ، ثم دعا به فعرض عليه القضاء فامتنع ، فقال له المنصور : « أترغب عما نحن فيه ؟ » فقال أبو حنيفة : « أصلح الله الأمير ، يا أمير المؤمنين : اتق الله ولا تشرك في أمانتك من لا يخاف الله ، والله ما أنا مأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟ فلا أصلح لذلك » ، فقال له المنصور : « كذبت أنت تصلح لذلك » . فلما رأى المنصور أنه لا يزال مصراً على الامتناع ، أعاده إلى السجن ، وأمر بضربه بالسياط ، فمكث في السجن على أرجح الأقوال حتى

مات من أثر الضرب .

وكانت وفاته سنة خمسين ومائة من الهجرة » . (١)

والواقع أن سؤال أبي جعفر المنصور لأبي حنيفة : « أترغب عما نحن فيه ؟ » هو السبب الحقيقي وراء امتناع أبى حنيفة عن تولي القضاء للعباسيين . فقد كان أبو حنيفة النعمان بن ثابت عالماً زاهداً ورعاً تقياً ، وقد تورع هو وغيره من الفقهاء الورعين عن تولي القضاء لما له من خطر ومسئولية عظيمة ، وامتنعوا عن الاتصال بملوك الدولة العباسية لأنهم رأوهم يسيرون في طريق بنى أمية ، فيستبدون بالناس ، ولا يبتعدون عن سفك الدماء ، وكان أبو جعفر المنصور يعرف ذلك ، وكان لا يرضى عن ابتعاد أولئك الفقهاء عن الاتصال به ، فعمل على أن يقربهم منه ، وأن يوليهم بعض المناصب في دولته ، فيجذب بذلك قلوب الناس إلى بني العباس ، لأن أولئك الفقهاء كانوا أئمة في الدين ، فكان الناس يقتدون بهم في دينهم ودنياهم ، ويرضون عمن يرضون عنه من الملوك ، ويكرهون من يكرهونه منهم ، ولكن أبا حنيفة لم يمكن أبا جعفر المنصور من هدفه ، وإن ناله من الأذى والعسف ما كان سبباً في موته.

فالقضاء إذن من الخطورة بحيث يزهد فيه الكثير من أولي العلم والفضل ، ولهذا قال بعض الأئمة : وشعار المتقين البعد عن هذا ، والهرب منه ، وقد ركب جماعة ممن يقتدي بهم من الأئمة المشاقّ في التباعد عن هذا ، وصبروا على الأذى في الامتناع منه ، وما امتناع عبد الله بن إدريس ، ووكيع بن الجراح

---

(١) أنظر : ٢ / ١٨١ من كتاب جواهر الأدب ، للأستاذ / السيد أحمد الهاشمي / منشورات مؤسسة المعارف . بيروت / لبنان .

عن تولي القضاء لهارون الرشيد إلا من باب التحوط والبعد عن الشبهات ، وهما في ذلك يمتثلان قول رسول الله ﷺ : « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك** » . (١)

وهذا مسلك الأتقياء الصالحين ، فقد روي عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه قوله : « كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام » . ومثل هذا يقول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : « كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام » . فالمسلم التقي يمتنع عما فيه شبهة وريبة ، كما يمتنع عما فيه حرمة .

---

(١) رواه البخاري في باب البيوع ، وأحمد ٣ / ١٥٣ .

٢ - الحزم في القضاء :

إن القضاء أرقى مظاهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يقول الله تعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ (١)

والحكم بما أنزل الله هو الطريق الوحيد لإقامة العدل ، أما الحكم بغير ما أنزل الله فهو الكفر والظلم والفسوق والعصيان ، والحكم بما أنزل الله إما أن يكون بنص من الكتاب أو السنة ، وإما أن يكون بروح ما اقتضته الشريعة السمحة ، وهو ما يسميه الفقهاء بالاجتهاد ، وهذه مصادر التشريع التي أقرها رسول الله ﷺ .

روي عن معاذ - رضي الله عنه - : « **أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن ، فقال له : كيف تقضي إن عرض عليك القضاء ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله ، قال : فإن لم يكن ذلك في كتاب الله ؟ قال : أقضي بسنة رسول الله ، قال : فإن لم يكن ذلك في سنة رسول الله ، قال : أجتهد رأيي ولا آلو - أي لا أقصر - قال : فضرب رسول الله ﷺ صدره بيده فقال : الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسول الله** » . (٢)

وتروي لنا كتب السيرة والأحاديث النبوية : أن رسول الله ﷺ قد بعث أبا موسى الأشعري على نصف اليمن ، ومعاذ بن جبل على نصف من اليمن.

فقد روى أحمد أن النبي ﷺ بعث معاذاً وأبا موسى الأشعري إلى اليمن فقال : « **بشّروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا ، وتطاوعا ولا تختلفا** » (٣)

---

(١) آية رقم ١١٠ من سورة آل عمران .

(٢) رواه أحمد ٥ / ٢٣٦ ، ٢٤٢ .

(٣) رواه البخاري / وأحمد في باب العلم / ٤٩ .

وإذا كانت ولاية القضاء من الأمور الهامة التي تتفرع من الولاية العامة ، فإن الإمام ابن تيمية يرى أن للولاية ركنين : القوة ، والأمانة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ (١) والقوة المرادة هنا ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام . وعلى هذا الأساس وجدنا معاذاً يصر على قتل المرتد .

فيذكر القاضي وكيع في كتابه (أخبار القضاة) : « أن معاذاً قدم على أبي موسى الأشعري باليمن ، فإذا رجل ارتد عن الإسلام ، فقال معاذ لانزلن عن دابتي حتى يقتل » .

وقد رواه أحمد بلفظ : (قدم على أبي موسى الأشعري معاذ بن جبل ، فإذا رجل عنده فقال : ما هذا ؟ قال : رجل كان يهودياً فأسلم ، ثم تهوّد ، ونحن نريده على الإسلام - وكان قد استتيب - فقال : « والله لأقعدن حتى تضربوا عنقه » ، فضُربت عنقه ، فقال : « **قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه أو قال : من بدل دينه فاقتلوه** ») .(٢)

وهذا هو الحق والعدل الذي أخذ معاذ نفسه به ، ولم يتردد في أن يطلب من أبي موسى تنفيذ حد الله ، وألا يتهاون أو يتقاعس عن ذلك .

ومن هنا تبرز أهمية القضاء الذي التزم به معاذ ، وحزمه وجرأته في تنفيذ حدود الله التي هي أساس إقامة العدل بين الناس .

وما أروع قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : لم يُقِم أمر الناس إلا امرؤ حصيف العقيدة ، بعيد الغور ، لا يطّلع الناس منه على عورة ولا يخاف في الله لومة لائم .

---

(١) آية رقم ٢٦ من سورة القصص .

(٢) رواه البخاري ٤ / ١٩٦ .

٣ - أبو هريرة لا يحبس المدين ليسعى ، وكذلك فعل الحسن البصرى :

إن القضاة هم رواد العدالة ، وعلى منابر من العدل ، ولذلك وجب عليهم أن يتحلوا بأكرم الصفات وأجلها ، وأن يستقوا منهجهم الذى يسيرون عليه ، ويعاشرون به الناس من القواعد العامة التى رسمتها الشريعة للإنسان المسلم ، فلا يتصفون بالغلظة والقسوة ، ولا بالتساهل والتهاون ، وعدم المبالاة ، كما لا يتعسفون فى إصدار الأحكام ، بل يتوخون مصلحة الناس وما فيه نفعهم ، وأن يكونوا قدوة حسنة فى جميع تصرفاتهم .

وقد كان أبو هريرة - رضى الله تعالى عنه - أحد القضاة الذين حرصوا على ذلك حرصاً عظيماً وحكموا بين الناس بما يعود على المتخاصمين بالنفع . وفى هذا يورد صاحب كتاب (أخبار القضاة) ما يرويه أبو هلال عن غالب القطان عن أبى المهزّم قال : « كنت عند أبي هريرة رضى الله تعالى عنه فأتاه رجل بغريم له فقال : إن لي عليه مالاً ، قال : ما تقول ؟ قال : أريد حبسه ، قال أبو هريرة : هل تعلم له عين مال فأخذ منه فنعطيك ؟ قال : لا ، قال : فما تعلم أن له أصل مال فيبيعه ويقضيك ؟ قال : لا ، قال فما تريد منه ؟ قال : أريد أن تحبسه ، قال : لا أحبسه لك ، ولكن أدعه يطلب لك ولنفسه ولعياله » . وهذه هي الرحمة ، والقضاء العادل . فأبو هريرة يقدر الأمور بقدرها ، ويضع نصب عينيه إنفاذ الصالح العام . فإعطاء المعسرين فرصة يتمكنون فيها من السعي والعمل حتى يقضوا ما عليهم هو الطريق الأمثل لإنهاء النزاعات ، أما الحبس تحقيقاً لرغبة الدائن فإنه لا ينهي مشكلة .

كذلك يروي لنا القاضي محمد بن خلف بن حيان أن هذا هو ما قضى به الحسن البصري حين ولي قضاء البصرة ، فعن غالب القطان قال : شهدت الحسن البصري وهو قاض أقر رجل عنده بدين ، فقال صاحب الدين : احبسه لي ، فقال الحسن : هل تعلم له مالاً فنأخذه فنعطيك ؟ أو شيئاً يبيعه فندفع

إليك ثمنه ؟ قال : لا ، قال : إني لا أحبسه لك حتى يكد على نفسه وعياله ، أي يشتد وينشط في طلب رزقه وأولاده . وهذا هو الحكم الأمثل الذي ينظر إلى إنهاء الخصومات بطريقة عملية ، ويهدف إلى التناصح والتعاون ، وهذا هو اللين في غير ضعف ، وهذا هو ما أرشدنا إليه الخليفة الأول أبو بكر - رضي الله عنه - عندما قال : لا يُصلح هذا الأمر - أي الدين الإسلامي - إلا شدةٌ في غير عنف ولينٌ في غير ضعف

٤ - سئل ابن شُبرمَة عن الإعسار في النفقة ، فما الحكم ؟

كان عبد الله بن شُبرمَة من رواة الحديث ، كما تولي القضاء ليوسف بن عمر في الكوفة ثم فى سجستان . ويروى لنا القاضى محمد بن حيان صاحب كتاب أخبار القضاة ما كان من أمر ابن شُبرمة لما وُلّى القضاء فقد دخل المسجد فصلى أربع ركعات قبل أن يجلس ، ثم سلم ، وقال : اللهم إن هذا المجلس كنت أشتهيه وأتمناه عليك ، اللهم فكما ابتليتني به فسلّمني منه وأعنّي عليه ، ثم بكى حتى بل بدموعه خرقة كانت في يده .

كما تصدى ابن شبرمة للفُتيا فيما يعرض عليه من مسائل . ويورد القاضي محمد بن خلف بن حيان في الجزء الثالث من كتابه « أخبار القضاة » العديد من المسائل التي أفتى فيها برأيه ، وألواناً من الأحكام القضائية التى قضى بها فيما عرض عليه من منازعات وقضايا .

ومن ذلك ما يرويه ابن شبرمة نفسه قال : « دعانا صاحب الكوفة أنا وحماداً ، فسألنا عن الرجل يتزوج المرأة ولا يقدر أن ينفق عليها ، فقال حماد : يفارقها ، فقال لي : ما تقول أنت ؟ فقلت : سبحان الله ! إنما قال الله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (١) لا لذى فاقة ، أى لا يفارقها المعسر » . فغضب حماد فقام ، فأبطأت أنا حتى ذهب ، مخافة أن يعاتبني ، فلما خرجت إذا هو جالس خلف الباب فقال لى مغضباً : أعلمك وتخالفنى ؟ فقلت إنى رأيته رأياً فقلته .

وكان حماد أستاذاً لابن شبرمة تعلم على يديه واستفاد منه كثيراً ، ويحدثنا ابن شبرمة نفسه عن ذلك فيقول : ما أحد أبرّ عليّ في علم من حماد . لكن الفُتْيا أمانة ، والاجتهاد في الرأي واجب ، فلا مجاملة في دين أو عقيدة ،

---

(١) آية رقم ٧ من سورة الطلاق

وكل منهما قال صواباً ، وكل منهما لم يبعد عن الحق ، فالتفريق بين الزوجين بإعسار الزوج مذهب جمهرة من العلماء ، كما حكاه الحافظ فى كتابه فتح البارى ، وروُي عن علي ، وعمر ، وأبي هريرة ، والحسن البصرى ، وسعيد بن المسيِّب ، وحماد ، وربيعة ، ومالك وأحمد ، والشافعي ، والإمام يحيى .

أما الأحناف فيرون أن على الزوجة الصبر ، وتُعلَّق النفقة بذمة الزوج بل ذهب ابن حزم إلى أنه يجب على المرأة الموسرة الإنفاق على زوجها المعسر ولا ترجع عليه إذا أيسر .

أما ابن القيِّم فقال : إذا تزوجت المرأة عالمة بإعسار الزوج ، أو كان حال الزوج موسراً ثم أعسر فلا فسخ لها . وإن كان هو الذي غرّها عند الزواج بأنه موسر ، ثم تبين لها إعساره كان لها الفسخ .

ومن ذلك يتبين لنا سماحة ديننا الإسلامي ، وأن الأمور لا تؤخذ على إطلاقها ، بل لا بد من مدارسة الأمر ، والتعرف على ملابساته ، وما يحيط به من أحوال حتى تأتي الفُتْيا مبنية على أسس سليمة تحمل سماحة الدين ويسره .

٥ - كان عمر بن عبد العزيز يتشدد في اختيار القضاة كما فعل مع بلال بن أبي بردة :

إن الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قد صار في خلافته سيرة صالحة ، حكم بالعدل ، وعامل الرعية بالإحسان ، ومنع الظلم .

ونحن إذ نستمع إليه في خطبته التي خطبها الناس من فوق المنبر في المدينة المنورة يوم أن تولى الخلافة ، والتي بدأها بقوله : « أيها الناس إني ابتليت بهذا الأمر من غير رغبة كانت مني » والتي أنهاها بقوله : « ألا لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » .

إذا قرأنا هذه الخطبة لتبين لنا بجلاء تمسك هذا الرجل بالاتجاه الإسلامى والحرص على تنفيذ ما أمر به الله ، والبعد عما نهى عنه . ومن هذا المنطلق وجدناه لا يستعين بعامل أو جابي خراج أو صدقات أو قاضٍ إلا اختبره ظاهراً وباطناً ، فكان لا يولّي أحداً وخاصة في القضاء إلا بعد أن يثق فى دينه وخلقه ، ويتعرف على سيرته ، وأنه لا مطعن عليه ولا تهمة .

يذكر القاضي وكيع محمد بن خلف بن حيان في الجزء الثاني من كتابه (أخبار القضاة) : أن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قدم على عمر بن عبد العزيز ، فأعجب به عمر ، وبما رأى من سمته وصلاته ، وكان ذا عمامة سوداء يسدلها من بين يديه ومن خلفه ، فَهَمَّ عمر بن عبد العزيز أن يستعمله لكنه لم يختبره اختباراً عملياً ، وخشي أن يكون باطنه خلاف ظاهره فَدَسَّ إليه مولاه مزاحماً وقال له : انظر إلى أمره ، واعرف خبره ، فأتاه مزاحم وآنسه ثم قال له : مالي عندك إن استعملك أمير المؤمنين

على العراق ؟ قال في لهفة : مائة ألف أعجلها ، ومائة ألف درهم تأتيك من العراق ، فأتى مزاحم عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - فأخبره بما قاله بلال بن أبي بردة ، فأمر به عمر فنُحِّي به من خناصرة - مقر إقامة الخليفة حينئذ - وهي بلدة من أعمال حلب بسورية - وقال : « لا يبيتن في عسكري » ، وكتب إلى عامله عدي بالعراق : « أحذرك بلالاً بلالَ الشرّ فلا تستعمله ، ولا عيينة بن أسماء ، وحوشب بن يزيد ، فإنهم من بقايا الشر » . وقد أثبتت الأيام صدق حدس عمر بن عبد العزيز في بلال فقد تولى بلال البصرة في أيام العباسيين ، فكان له من التجاوزات ما يدل على جوره ، وبعده عن النهج القويم . فيذكر القاضي وكيع في كتابه : (أخبار القضاة) أن بلالاً كان غير مرضي عليه من الناس خلال ولايته ، وأن عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول حدثني أبي قال : حدثنا سيار قال : حدثنا جعفر قال : سمعت مالك بن دينار لما وُلِّي بلال بن أبي بردة يقول : « يا لك من أمة هلكت ضياعاً ولي أمَرك بلال » .

ومن دلائل جوره ما يذكره الشيخ محمد بن خلف بن حيان أن بلالاً حابى صديقاً له في خصومة رُفعت إليه ، فقد ضرب رجل من العرب وجه الخطاب بن قتادة ، فاستعدى عليه بلال بن أبي بردة وهو على البصرة ، فلم ينصره عليه لأن الرجل كان صديقاً له .

رحم الله الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الذي كان خير خلف لخير سلف .

٦ - قطع رجل أذن رجل ، بماذا حكم شريح ؟

إذا كان شُريح بن الحارث الكندي قد تولى القضاء بعد عبد الله بن مسعود في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، فإن ذلك بسبب ما كان لشريح من حكم قضائي في مسألة كان عمر بن الخطاب أحد طرفيها .

إذ يذكر القاضي محمد بن خلف بن حيان في كتابه (أخبارالقضاة) : أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أخذ من رجل فرساً على سوم - أي على أجر - يحمل عليه رجلاً ، فعطب الفرس ، فقال الأعرابي صاحب الفرس لعمر : اجعل بيني وبينك رجلاً من المسلمين شُريحاً العراقي ، فأتيا شريحاً ، فقال شريح : « يا أمير المؤمنين أخذته صحيحاً سليماً على سوم ، فعليك أن ترده سليماً كما أخذته » ، فأعجبه ما قال شريح ، ثم بعثه قاضياً ، وأوصاه قائلاً : « ما وجدت في كتاب الله فالزمه ، فإن لم يكن فالزم السنة ، فإن لم يك في السنة فاجتهد رأيك » ، ثم كانت هناك كتابات توجيهية من عمر بن الخطاب إلى شريح تختص بأمر القضاء : الشفعة ، وأحقية الجار فيها ، وتوريث المطلقة في مرض الموت وقد مات زوجها وهي في العدة .

كذلك فقد شهد علي بن أبي طالب لشريح بالحكمة والعدل وقال له : « إنك أقضى العرب » لما عرف عنه من أحكام قضائية عادلة .

وقد كان لشريح أقضية كثيرة ومتنوعة قضى فيها بما أمر الله في كتابه ، أو على لسان نبيه ﷺ أو بما اجتمع عليه رأي المسلمين .

أما عن قضائه في الرجل الذي قطع أذن رجل آخر فإن الشيخ محمد بن خلف بن حيان يذكر هذه المسألة في كتابه (أخبار القضاة) إلى جانب مسائل عديدة قضى فيها شريح قضاء عادلاً تستقر إليه النفوس . فيروي الشعبي : أن رجلاً قطع أذن رجل آخر ، فأُتي به شريحٌ ، فقطع أذنه ، فأخذها

الرجل ، فالزقها بدمها ، فأتى شريحاً ، فقال : « خذها فادلكها بالتراب » أي اغمرها في التراب وادفنها - ثم قال : « إنما جعل القصاص للشين أي للعيب »

وهذا هو القصاص العادل الذي شرعه الله تعالى حيث قال : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ . فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١)

فشريح أحد القضاة الذين نفذوا شرع الله ، وحرصوا على أن يشيعوا العدل في مجتمعاتهم ، فأمنوا وأمن الناس ، فالله تعالى يقول : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢)

---

(١) الآية رقم ٤٥ من سورة المائدة .

(٢) الآية رقم ١٧٩ من سورة البقرة .

٧ ـ لا نكاح إلا بولي :

شرع الله الزواج وجعله من السنن الكريمة ، وحث عليه ، ففيه حفظ النوع الإنساني ، واستمرارية الوجود ، كما تصان به الأعراض ، وتحفظ به الأنساب ، وتقوم العلاقة المشروعة بين الرجل والمرأة في تجاوب نفسي وترابط أسري كريم .

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١)

وبالزواج تتلاقى مصالح الرجل والمرأة ، ويستجيب كل منهما لواجباته نحو الآخر ، فيعنى الزوج بحاجات أسرته ، وصونها ، وحمايتها ، وهدايتها إلى الطريق القويم ، وتعنى الزوجة بأسرتها ، وتربية أولادها ، ورعايتهم ، وهدايتهم فيقوم المجتمع الصالح ، ويعمر الكون بالعباد الصالحين .

وقد جعل الله القوامة للرجال على النساء ، فقال في كتابه الكريم : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ (٢) فليس للمرأة أن تزوج نفسها ، أو تعقد لنفسها على الرجل ، وإن رأى الأحناف أن للمرأة حق مباشرة عقدها إمضاء لظواهر الآيات في هذا الشأن . لكن النصوص صريحة في أن يكون النكاح عن طريق الولي .

ويؤكد الشيخ محمد بن خلف بن حيان في كتابه (أخبار القضاة) هذا

---

(١) الآية رقم ٢١ من سورة الروم .

(٢) جزء من آية رقم ٣٤ من سورة النساء

المبدأ فيورد ما قال به القاضي شريح في ذلك ، فيروى عن الشعبي : أن مسروقاً وشريحاً كانا يقولان : « لا نكاح إلا بولي » ، وذلك مع الالتزام بعدم الإكراه على ما لا ترغب فيه المرأة . فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تنكح الأيِّم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن ، قالوا : يا رسول الله : وكيف إذنها ؟ قال : أن تسكت ».(١) بل إنه إذا حدث إكراه فللمرأة أن تلجأ إلى الحاكم ، فقد روى أحمد وأبو داود : « أن جارية بكراً أتت رسول الله ﷺ فذكرت أن أباها زوَّجها ، وهي كارهة ، فخيَّرها النبي ﷺ ».(٢) وفي رواية : « أن فتاة دخلت على عائشة فقالت : إن أبي زوجني من ابن أخيه ، يرفع بي خسيسته ، وأنا كارهة له ، قالت عائشة : اجلسي حتى يأتي رسول الله ، فجاء رسول الله ﷺ ، فأخبرته ، فأرسل إلى أبيها ، فدعاه ، فجعل الأمر إليها ، فقالت: يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبي ، ولكني أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء »

ومع هذا ، فإن الشافعية والحنابلة أجازوا أن يجبر الأب ابنته البالغة على الزواج بمن تكره ، ولكل وجهة هو موليها .

أما حبس ولي الأمر المرأة ، ومنعها من الزواج من كفء ، فللمرأة أن تلجأ للحاكم ، وهذا ما أفتى به شريح عندما قال : لا نكاح إلا بولي ، فقد أضاف : إلا لامرأة يعضلها وليها - أي يحبسها ويمنعها من الزواج - فتأتي السلطان أو القاضي فيزوجها ، أو يأمر رجلاً فيزوجها .

---

(١) رواه البخاري في باب النكاح ٤١ .

(٢) رواه أحمد وأبو داود في باب النكاح / ١٥٤

وهذا ما أقرته شريعة الله التي تحرص على إعطاء كل ذي حق حقه ، يقول المصطفى ﷺ : « إذا أتاكم من ترضون دينه فزوّجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » .[1]

فعلى أولياء الأمور ألا يتعسفوا في استعمال حق الولاية ، وأن يرعوا مصلحة من يتولون أمرهن من النساء ، فللولي حقوقه ، وللمرأة حقوقها دون إفراط أو تفريط ، وفي المحافظة على هذه الحقوق سعادة الأفراد والجماعات وعصمة للجميع من الزلل والغوايات .

---

(١) رواه الترمذي في باب النكاح / ١٥٢ .

٨ - أفسدت الغنم الزرع ، بماذا حكم شريح ؟

إن شريح بن الحارث بن قيس الكندي قد ولاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الكوفة ، فقضى بها ستين سنة ، وتوفي سنة ٨٠ هـ ، وكان من جلة العلماء وأذكاهم ، وكان في قضائه عادلاً يسوي بين الخصوم مهما كانت أقدارهم ومنازلهم .

وكان لشريح من الفتاوى والأقضية ما امتلأت به الصفحات التي سجلت تلك الأحكام العادلة التي عرف بها شريح . ومن ذلك ما ذكره القاضي محمد بن خلف بن حيان في كتابه (أخبار القضاة) أنه كان يضمن ما أفسدت الغنم بالليل - أي يلزم صاحب الغنم بقيمة ما أفسدته ليلاً - ولا يضمن ما كان منها بالنهار ويتلو الآية الكريمة : ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ** ﴾ (١) ويتأول الآية الكريمة ويقول : كان النفش بالليل .

وعن أشعث بن أبي الشعثاء قال : شهدت شريحاً ، وأتاه رجلان ، فقال أحدهما : كنت أسوق غنماً لي عظيمة وكنت في آخرها ، ووالله ما كان أولها يدري ، وإن شاة منها دخلت بيت هذا ، فقطعت غزله ، فقال شريح بهيمة عجماء جُبار - أى إنه لا يقتص من البهيمة - ثم قال ﴿ **إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ** ﴾ ولم يضمنه . وفى الحديث الشريف : « **جرح العجماء جبار** » أى جرح البهيمة هدر لأنه لا يقتص منها بما فعلت ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **العجماء جرمها جبار ، والبئر جبار ، والمعدن جبار ، وفي الركاز الخمس** » . (٢)

---

(١) الآية رقم ٧٨ من سورة الأنبياء .

(٢) رواه البخاري (باب الديات) ٣٨ ، ٣٩ .

وبذلك يتضح لنا أن شريحاً قضى بضمان أهل الغنم لما أتلفته من الزروع في الليل ، وذلك لأنهم مطالبون بالمحافظة على غنمهم في الليل ، وألا يتركوها سائمة .

ولم يحكم على صاحب الغنم في المسألة الثانية وهي التي دخلت بيت الشاكي ، وقطعت غزله ، لأنها عجماء جبار ، أي انفلتت من صاحبها ، ولا قصاص عليها فيما أتلفت ، لأن صاحب الغزل مطالب بالمحافظة عليه نهاراً ، ولذلك روي مرفوعاً عن البراء بن عازب : أن ناقة لأهل البراء أفسدت شيئاً ، فقضى رسول الله ﷺ أن حفظ الثمار على أهلها بالنهار ، وضمن أهل الماشية ما أفسدت ماشيتهم بالليل ، وقد روي عن طريق آخر عن البراء أيضاً : أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائط رجل فأفسدت فيه ، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الأموال بحفظها بالنهار وعلى أهل المواشي بحفظها ليلاً .

واعتماداً على ما سبق ، فقد ذهب العلماء إلى أن ما أفسدته البهائم بالليل من الزروع ، فهو مضمون على أهل الماشية ، وما أفسدت من ذلك نهاراً لا يضمنه أهل الماشية ، لأن أصحاب الزروع مطالبون بالمحافظة على زروعهم نهاراً أما إذا أتلفت البهيمة غير الزرع فلا يضمن صاحبها ما أتلفته ، سواء أكان هذا الإتلاف ليلاً أم نهاراً ، ما لم تكن يده عليها .

٩ - العدل في الحكم والرحمة في الحبس :

عن علي بن صالح قال : قيل لشريح : كيف أصبحت يا أبا أمية ؟ قال : أصبحت ابن ست ومائة سنة ، قضيت منها ستين - أي في القضاء - ورجل قضى في القضاء ستين سنة لا ننتظر منه إلا تحكيماً لشرع الله ، وإرساءً لمبادئ العدل ، وترسيخاً للقيم الإسلامية الرفيعة .

وهكذا كان شريح على مدى فترة عمله في القضاء ، فقد أصدر الأحكام والفتاوى في مسائل عديدة ، التزم فيها جميعها بالإنصاف ، والحيدة الكاملة ، مهما كان الخصوم ، بل كان يضع نصب عينيه العدل فيما يقول وما يحكم به

ومن ذلك ما ينقله الشيخ محمد بن خلف بن حيان صاحب كتاب (أخبارالقضاة) فيذكر : أن شُريحاً يروى عن أشعث بن سليمان قال : اشترى ابن عمر عبداً له ، فاختصم البائعان إلى شريح ، فانطلقت معهما فقضى شريح على ابن عمر بقيمة العبد للبائع .

كما أن شريحاً لم يقبل شفاعة في حكم ، مهما كان صاحب تلك الشفاعة

ويذكر صاحب كتاب (أخبار القضاة) ما يؤكد ذلك فيقول : حبس شريح رجلاً فقال له عبد الله بن زياد : أخرجه ، فقال له شريح : أيها الأمير السجن سجنك والعامل عاملك ، وتأمر فتطاع ، وأبى شريح أن يخرجه هو ، فبإمكان الأمير أن يأمر بإطلاق سراح السجين ولن يَعصى له أمراً أما أن يفعل شريح ذلك فلا .

أما عن مظاهر العدل في حكمه ، والرحمة في الحبس ، فإن حبيب المقدم يروي لنا ذلك حيث يقول : كنت قد قدمت إلى شريح فجاءه رجل فقال : اعدُني - أى أعنّي-وانصرني على عبد الله بن شريح - قال : وما له ؟ قال : كفل لي رجلاً - أى ضمن لي رجلاً - فدعا بعبد الله فسأله فاعترف ، فحبسه له في

السجن ، وقال لي شريح : يا حبيب انت عبد الله في السجن بفراش وطعام . فشريح يحكم على ابنه بما يستحقه لأنه ضامن - والضامن غارم - ولكنه لا يتخلى عن عاطفة الأبوة ، فيستعملها فيما لا ينال من حكمه ، فيأمر لابنه بفراش وطعام .

وهكذا كان شريح يعدل ، ولا يجور ، ويرحم ، ولا يتجاوز ما أمر به الله .

رحم الله هذا القاضي العادل وجزاه عن الإسلام خير الجزاء .

١٠ - رأى شريح رجلاً يصلي بعد أذان المغرب ، فقال لرجل : « قم فانهه فإنه لا يحل له أن يصلي الآن » . فما حجة شريح في ذلك ؟

كذلك فُجينما رأى رجلاً يصلي حين أشرقت الشمس قال ذلك .

من المعروف أن الله تعالى قد فرض على أمة محمد ﷺ خمس صلوات في اليوم والليلة ، ولكل صلاة من هذه الصلوات أوقات تؤدى فيها ، ويكون المصلي آثماً إذا أداها في وقت الحرمة ، وفاعلاً للمكروه إذا صلاها في وقت الكراهة ، كما أن هناك من الصلوات ما هو فرض كفاية ، وما هو سنة مؤكدة ، أو غير مؤكدة ، وما هو مندوب أو تطوع .

وهذه الصلوات غير المكتوبة لها أوقات تؤدى فيها ، وأوقات يكره أداؤها فيها، فمن الأوقات التي تكره أو تحرم الصلاة فيها : بعد طلوع الفجر أى قبل صلاة الصبح ، إلا سنتها فلا تكره ، وبعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس ، فلا يصلي أحد في هذا الوقت نافلة ولو سنة الفجر إذا فاتته ، ووقت استواء الشمس في كبد السماء حتى تزول ، وبعد صلاة العصر إلى غروب الشمس .

وقد جعل المالكية والأحناف الصلاة مكروهة بعد تمام غروب الشمس إلى أن تصلى المغرب ، وهذا هو ما اعتمد عليه شريح عندما رأى رجلا يصلي بعد أذان المغرب ، فقال لرجل : قم فانهه ، فإنه لا يحل له أن يصلي الآن .

وقد اختلف العلماء في صلاة النافلة في هذا الوقت ، فأجازها بعضهم استدلالاً بما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « صلوا قبل المغرب » ثم قال : « صلوا قبل المغرب » ثم قال في الثالثة : « لمن شاء » [١] كراهية أن يتخذها الناس سنة ، وفي لفظ لأبي داود : « صلوا قبل المغرب ركعتين » ، وزاد فيه

---

(١) رواه البخاري في (باب الصلاة) ١ / ٢٠٥ .

أصحاب ابن حبّان في صحيحه : « أن النبي ﷺ صلّى قبل المغرب ركعتين » إلى غير ذلك من صحاح الأحاديث .

وقد منع ذلك كثير من السلف ، والحنفية ، ومالك ، استدلالاً بما رواه أبو داود عن طاووس قال : سئل ابن عمر عن الركعتين قبل المغرب ، فقال : ما رأيت أحدا على عهد النبي ﷺ يصليهما .

وقد أطال الكمال بن الهمام البحث في هذه المسألة في كتاب (فتح القدير) إلى أن قال : ثم إن الثابت بعد هذا نفي المندوبية ، أما ثبوت الكراهة فلا .

وعلى ذلك فللمسلم أن يصلي ركعتين بعد غروب الشمس وقبل صلاة المغرب بلا كراهة ، كما يذكر القاضي محمد بن خلف بن حيان في كتابه (أخبار القضاة) : أن شريحاً رأى رجلاً يصلي حين أشرقت الشمس فقال لرجل : قم إلى هذا فانهه ، فإنه لا يحل له الصلاة في هذه الساعة ، وهذا هو رأي الأئمة الأربعة ، فصلاة النافلة بعد صلاة الصبح حتى ترتفع الشمس في السماء قدر رمح - أي ما يعادل متراً ونصفاً - مكروهة عند الأحناف والشافعية أما الحنابلة فقالوا : يحرم التنفل ولا ينعقد ولو كان له سبب ، يستثنى من ذلك ركعتا الطواف ، كذلك يحرم التنفل في هذا الوقت عند المالكية .

[٢]

العالم الفقيه شمس الدين
أبو عبد الله محمد بن مفلح

هو العلامة الفقيه المحدث شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفلح الدمشقي الحنبلي المتوفي في رجب سنة ٧٦٣ هـ ، وقد اشتهر بابن مفلح . لازم شيخ الإسلام ابن تيمية ، وكان أعلم الناس باختياراته في الفقه ، ويعبر عنها في كتابه (الفروع) بقوله : « واختار شيخنا » .

وقد كانت عنايته بالفقه أكثر من سائر العلوم ، وكان يحفظ من كتبه المنتقى والمقنع وغيرهما ، وله حاشية على المقنع وشرح ، قال صاحب شذرات الذهب إنه ثلاثون جزءاً .

وأشهر مصنفاته : (الفروع) ، وقد طبع مع تعليق عليه سمي (تصحيح الفروع) في ثلاثة مجلدات ، تبلغ صفحاتها زهاء ثلاثة آلاف صفحة ، وهو جامع لفروع المذهب الحنبلى ، مع الإشارة إلى خلاف الأئمة الثلاثة فيها ، وقال الحافظ بن حجر في ترجمته من (الدرر الكافية) : « إنه أورد فيه من الفروع الغريبة ما بهر به العلماء » ، وقالوا : « إن له في الآداب ثلاثة كتب : (الآداب الكبرى) و (الآداب الوسطى) و (الآداب الصغرى) » والمراد بالكبرى : كتاب (الآداب الشرعية والمنح المرعية) ، وهو في ثلاثة أجزاء ، نشرته مطبعة قرطبة بالقاهرة . وقد تحرى فيه أن يكون كالفروع في الفقه جامعاً لخلاصة ما ألفه فيه أئمة الحنابلة من المصنفات التى ذكرها في فاتحته وهذا الكتاب مستمد من الكتاب والسنة وآثار السلف من العباد والزهاد ،

والمدار في أحكامه الفقهية وآدابه الشرعية حتى في العبادات والمباحات على ما كان عليه إمام الأئمة أحمد بن حنبل رضى الله عنه في عمله وأخلاقه وعاداته . ولا شك أنه مثل أعلى لاتباع الهدى النبوى والمنهج السلفي ، ولكن لا يطالب كل مسلم أن يلتزم ذلك في كل حال ، بل لا يقدر على هذا إلا أهل الكمال ،

وسنعرض فيما يلى لبعض القضايا الدينية والفقهية التى برزت في حياة المسلم المعاصر ، وأخذت كثيراً من اهتماماته ، وأصبحت محل تساؤلات عديدة ، ونوضح ما قاله العلماء وأئمة الفقه فيها ، وما كان للعالم الفقيه شمس الدين بن مفلح من اجتهادات وآراء حولها تضمنها كتابه القيم (الآداب الشرعية والمنح المرعية)

١ - حكم الفقه في الدين :

روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسـول الله ﷺ قـال : « **من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة** » .(١)

في هذا التوجيه النبوى بيان لأهمية العلم والتعليم ، وحث للمسلمين على السعى في طلب العلم ، وبذل كل جهد في سبيل تحصيله والوصول إليه ، والتعلم في حديث رسول الله ﷺ مراد به العلم الشرعى ، أى كل ما يتصل بالدين من فقه ورواية وأصول وعقيدة وغيرها ، وإن لم يمنع ذلك من إرادة العلوم النافعة لبنى البشر .

وجزاء طلب العلم هو أن يسهل الله لطالبه به طريقا إلى الجنة ، وذلك بأن يهديه الله بسبب علمه ، ويوفقه إلى الطاعات بما علم ، فيكون ذلك موصلا إلى الجنة ، وفي هذا حث على طلب العلم والحرص على تعلمه ، إذ إن جزاءه وعد من الله الذى لا يخلف وعده وهو الفوز بالجنة وما أعظمه من جزاء .

وهناك أحاديث أخرى تحض على طلب العلم ، والسعى في سبيله . فقد روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قـال : « **ما من رجل يسلك طريقاً يطلب فيه علماً إلا سهل الله له به طريقا إلى الجنة** » .(٢) ومنها ما روي عن أنس بن مالك أنه قال : قال رسـول الله ﷺ : « **من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع** » .(٣)

والعلم طريق معرفة الله الحقة ، ولهذا تمتلىء قلوب العلماء بخشية الله ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ .(٤) فلا طريق إلى

---

(١) رواه البخاري في باب العلم ص ١٠ .
(٢) رواه أبو داود في (باب العلم) ١/ ٤٥ .
(٣) رواه ابن ماجه ٢/ ١٣ .
(٤) الآية رقم ٢٨ من سورة فاطر .

معرفة الله ، وإلى الوصول إلى رضوانه ، والفوز بقربه ومجاورته في الآخرة ، إلا بالعلم النافع الذى بعث الله به رسوله ﷺ ، وأنزل به كتابه ، فهو الدليل عليه وبه نهتدى في الظلمات ،

قال الله تعالى : ﴿ **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ .(١)

وقد مثل النبى ﷺ حملة العلم الذى جاء به بالنجوم التى يهتدى بها في الظلمات . فقد روى أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال « **إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء ، يُهتَدَى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة وما دام العلم باقياً في الأرض ، فالناس في هدى** » .(٢)

فالعلماء ورثة الأنبياء ، وهم مصابيح الظلام في هذه الدنيا ، يرشدون الناس ويهدونهم إلى طريق الله ، طريق الخير والحق والهدى والرشاد . ولذلك فإن من يتعرض لنصح الناس وإرشادهم إلى أمور دينهم ، والإجابة على أسئلتهم يجب عليه أن يتحرى ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

ويؤكد الشيخ ابن مفلح على ذلك ، فيذكر في (الفصل الذى عقده للوصية بالفهم في الفقه ، والتثبت وعلم ما يختلف فيه) : أن إسحق بن إبراهيم قال : « قيل لأبى عبد الله يكون الرجل في القرية ، فيسأل عن الشيء الذى فيه اختلاف قال : يفتى بما يوافق الكتاب والسنة ، وما لم يوافق الكتاب والسنة أمسك عنه . قيل له فيخاف عليه قال : لا » .

---

(١) الآية رقم ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ٣ / ١٥٧ .

وعن أبي موسى - رضي الله عنه - قال : « من علمه الله علماً فليعلمه الناس ، وإياه أن يقول ما لا علم له به ، فيصير من المتكلفين ، ويمرق من الدين » .

كما يلتزم ألا يجيب عن أسئلة غامضة لا وجود لها في حياتنا ، فقد روى ابن عمر أنه قال : « لا تسألوا عما لم يكن ، فإني سمعت عمر ينهى أن يسأل عما لم يكن » ، وروى ابن عباس قال : « ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوا إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض ، كلهن في القرآن ، وما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم ، فإن سألوا عما لا ينفعهم أرشدوا في الجواب عنه إلى ما ينفعهم » .

ولذلك فقد رُوِيَ عن الإمام أحمد أنه يكره السؤال عما لا ينفع السائل . فقد قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾(١) وقد استدل الإمام الشافعي بهذه الآية على كراهة السؤال عن الشيء قبل وقوعه ، وذلك لأن افتراض ما لم يقع تمحل وتعنت .

كما أن الإجابة على المسائل الافتراضية قد توقع في المحظور ، ولهذا ورد في الحديث : « **إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته** »(٢)

وديننا الإسلامي والحمد لله دين يسر لا عسر . ولذلك يروى الشيخ ابن مفلح في الفصل الذى عقده لكراهة التشدق في الكلام حديث ابن مسعود رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **هلك المتنطعون ، قالها ثلاثاً** »(٣)

---

(١) الآية رقم ١٠١ من سورة المائدة .

(٢) رواه البخاري في باب ما يكره من كثرة السؤال ص ٢٥٨ .

(٣) رواه أحمد ٣ / ١٧٢ .

رواه أحمد ومسلم ، والمتنطعون المبالغون في الأمور .

كما أورد حديث أبى داود في الحسد عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبى العمياء ، أن سهل بن أمامة حدثه : أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك في المدينة ، فقال : إن رسول الله ﷺ كان يقول : « **لا تشددوا على أنفسكم ؛ يشدد الله عليكم ، فإن قوماً شددوا على أنفسهم ؛ فشدد الله عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار ، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم** »[1]

---

(١) رواه أبو داود في باب الحسد ص١٥٦.

٢ - طاعة الوالدين في غير معصية :

إن الله تبارك وتعالى قد أوصى بالوالدين في كثير من الآيات ، وشدد في الوصية بهما لا سيما في وقت الشيخوخة .

فقد قال سبحانه : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾[1]

كما وجه المصطفي ﷺ الأبناء إلى حسن رعاية الآباء والعناية بهم ، حتى إنه جعل السعي على الوالدين جهاداً في سبيل الله ، فقد روى في الأحاديث الصحيحة : أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فبايعه فقال : جئت لأبايعك على الجهاد ، وتركت أبويّ يبكيان قال : « **ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما** »[2] وهذا هو الطريق الواضح إلى رضاء الله سبحانه وتعالى ومن رضى ربنا عنه ، كانت حياته وآخرته ظلالاً وارفة ونعيماً مقيماً إن شاء الله

لكن ما حدود هذه الطاعة ؟ وما معالمها ؟

لقد أجاب عن ذلك قول الحق تبارك وتعالى في سورة لقمان بعد أن وصى بالوالدين والشكر لهما ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ..... ﴾[3]

فطاعة الوالدين في غير معصية الله ، فلا يطاعان في كفر ، ولا خروج عن

---

(١) الآية رقم ٢٣ ، ٢٤ من سورة الإسراء .
(٢) رواه أبو داود / بر الوالدين ١٤٥ .
(٣) الآية رقم ١٥ من سورة لقمان .

أمر من أوامر الدين ، أو ارتكاب ما حرم الله ، أو فعل ما نهى الدين عنه . فكل ما وجب على المسلم من حج ، وصلاة مكتوبة ، وزكاة ، وصلاة الجمعة في جماعة ، والسفر للعلم الواجب ، وغير ذلك مما أمر به الدين ، لا يصح للوالدين أو أحدهما منع ابنهما من أدائه ، وليس على الابن إطاعتهما في شيء من ذلك . كذلك كل ما نهى الدين عنه من البعد عن الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، وأكل مال الآخرين بغير حق ، والغش في التجارة وشهادة الزور ، وما إلى ذلك مما نهى عنه ديننا الحنيف ليس للوالدين أو أحدهما أن يأمرا ابنهما بفعل شيء منه وليس عليه طاعة لهما فيما يأمران به . فإذا كان الأمر يعود إلى فرض من فروض الكفاية ، أو أمر من أمور التطوع ، كالخروج إلى الغزو مثلاً ، أو صيام التطوع ، وصلاة النوافل ، وحج التطوع ، وما إلى ذلك . فإن الشيخ شمس الدين بن مفلح يعرض لرأى الشيخ موفق الدين في ذلك ثم يناقش هذا الرأى . فالشيخ موفق الدين يقول : إن للوالد منع ابنه من الخروج إلى حج التطوع ، وذلك لأن له منعه من الغزو ، وهو فرض من فروض الكفايات والتطوع أولى ، ولأن بر الوالدين فرض عين ، والجهاد فرض كفاية ، وفرض العين مقدم على فرض الكفاية . ويعقب الشيخ شمس الدين بن مفلح على هذا الرأى فيقول : وظاهر هذا التعليل أن التطوع يعتبر فيه إذن الوالدين كما يقوله في الجهاد ، وهو غريب والمعروف أن اختصاص الجهاد بهذا الحكم ، والمراد - والله أعلم - أنه لا يسافر لمستحب إلا بإذنه كسفر الجهاد ، أما ما يفعله في الحضر ، كالصلاة النافلة ، ونحو ذلك مثلاً يعتبر فيه الإذن ، ولا أظن أحداً يعتبره ، ولا وجه له ، والعمل على خلافه ، والله أعلم .

فالشيخ ابن مفلح يتفق مع الشيخ موفق الدين في ضرورة استئذان الوالدين في السفر المباح ، كالاشتراك في الجهاد ، وحج التطوع ، وغير ذلك

مما يمكن أن يعود منه ضرر على الوالدين . أما ما يقوم به من النوافل ، كالصدقة ، والعطف على المساكين ، وصلاة النوافل ، وغير ذلك ، فلا حاجة إلى استئذان الوالدين فيه ؛ لأنه لا يلحقهما ضرر بأدائه والقيام به . بينما يرى الشيخ موفق الدين أنه لا فرق في ضرورة الاستئذان في كل الأمور التطوعية وفروض الكفاية .

٣ - ما الحكم إذا طلب الوالدان عدم فعل شيء من أمور التطوع كالصوم تطوعاً وصلاة النوافل مثلاً ؟

يتضح الحكم في ذلك من تعقيب الإمام ابن تيمية على الحديث الذى وجه فيه الرسول ﷺ الرجل الذى جاء ليبايعه على الجهاد وترك أبويه يبكيان حيث قال : « **ارجع إليهما ، فأضحكهما كما أبكيتهما** ».[1] يقول الإمام تعقيباً على هذا الحديث : هذا مقتضى قول من قال : أن يُبَرّ الوالدان في جميع المباحات فما أمراه ائتمر ، وما نهياه انتهى ، كما كانت هذه إجابة الإمام أحمد أيضاً عندما سئل عن الرجل يصوم التطوع ، فسأله أبواه أو أحدهما أن يفطر ، قال الإمام أحمد : « إن الحسن رضى الله عنه قال : يفطر وله أجر البر ، وأجر الصوم إذا أفطر ، أما الشيخ أبو البركات ، فإنه يرى أنه لا يجوز للوالد منع ولده من السنن الراتبة » .

ولعل في قول الإمام أحمد في مسألة ما إذا أمر الأبوان ابنهما بأن لا يصلى إلا المكتوبة ، أن يداريهما ويصلى ، لعل في ذلك القول جماع الأمر كله حيث يجمع الإنسان بين الطاعات جميعها ، فيبر الوالدين بعدم إظهار مخالفتهما ، وفي الوقت ذاته لا يهمل في أمور التطوع التى هى الوصال الروحي الدائم بين العبد وربه ، والإعلان غير المنظور عن شكر الله تعالى على ما تفضل به من نعم وما حباه من أفضال ، بشرط ألا يغضب والديه أو يخالفهما في قول أو عمل .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي / بر الوالدين ١١٥

٤ - لو طلب الوالدان أو أحدهما من الابن طلاق زوجته . فما رأى الدين في ذلك ؟

إن الإمام ابن تيمية - رحمة الله عليه - قال فيما يختص بطلب الوالدين أو أحدهما من الابن زواج من لا يريد هو أن يتزوجها بأنه لا يلزم ذلك الابن ، وأنه إذا امتنع لا يكون عاقا لهما ، لأنه إذا كان من المقرر أنه ليس لأحد أن يلزم ابنه بأكل ما ينفر منه مع قدرته على أكل ما تشتهيه نفسه ، كان النكاح كذلك وأولى . فأكل المكروه مرارة ساعة ، وعشرة المكروه من الزوجين على طول تؤذى صاحبه ، ولا يمكنه فراقه .

أما إذا كان الابن منصرفاً عن الزواج ولديه القدرة على الزواج ولكنه انشغل عنه ، أو كان شاباً يخاف على نفسه العنت فإن الإمام أحمد يقول في هذه الحالة : « إذا أمره أبواه بالزواج فعليه أن يطيعهما ، لأن في الزواج اتقاء للشبهات ، واستبراء للعرض والدين فإن ترك ذلك كان عاصياً » .

أما عن طلب طلاق زوجته : فإن أمره أبوه بذلك لم تجب طاعته ، فقد روي عن أبى عبد الله أن رجلاً سأل أبا عبد الله فقال : « إن أبى يأمرني أن أطلق امرأتي » ، قال : « لا تطلقها » ، قال : « أليس عمر أمر ابنه عبد الله أن يطلق امرأته ؟ » فأجابه : « حتى يكون أبوك مثل عمر » يعني مثل عمر في تحرى الحق والعدل ، وعدم اتباع الهوى في مثل هذه الأمور .

ويقول الشيخ ابن مفلح : « واختار أبو بكر من أصحابنا أنه يجب ، وذلك لأمر النبى ﷺ لابن عمر بذلك .

ونص أحمد في رواية بكر بن محمد عن أبيه : إذا أمرته أمه بالطلاق لا يعجبنى ، لأن حديث ابن عمر في الأب دون الأم . كما نص أيضاً في رواية محمد بن موسى أنه لا يطلق لأمر أمه ، فإن أمره أبوه بالطلاق طلق إذا كان عدلاً .

وقال الإمام ابن تيمية فيمن تأمره أمه بطلاق امرأته : « لا يحل له أن يطلقها ، بل عليه أن يبرها ، وليس تطليق امرأته من برها ، وبر الوالدين في غير معصية » .

وعلى هذا كان رأى صاحب المحرر فقد قال : « إن كل ما تأكد شرعاً لا يجوز للوالد منع ولده منه ، فلا يطيعه فيه » ، وكذا ذكر صاحب النظم : « لا يطيعهما في ترك فعل مؤكد ، كطلب علم لا يضرهما به ، وتطليقه زوجه برأى مجرد وذلك لقوله ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار » .[1] وطلاق زوجته لمجرد هوى ضرر بها وبه » .

---

(١) رواه ابن ماجه والدار قطني / النهي عن الإيذاء / ٣٤٢

٥ - كيف يتم صلاح القلوب ؟

إذا كانت القلوب تمرض كغيرها من أعضاء الجسم ، فإن مرضها بالشكوك والأوهام أعظم من الداء الذي يصيبها . فالقلوب كثيرة التقلب .

ولذا كان المصطفي ﷺ يحلف : « **لا ومقلب القلوب** » .

وكان ﷺ يقول : « **ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء ، إن شاء أن يزيغه أزاغه ، وصلاح القلوب رأس كل خير وفسادها رأس كل شر** » .(١)

وقد جاء في الصحيحين أنه ﷺ قال : « **ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب** » .(٢)

نسأل الله تعالى أن يصلح قلوبنا وقلوب المسلمين أجمعين .

يقول الشيخ شمس الدين بن مفلح : « وعلاج القلوب وصلاح أمرها يحصل ويتم باتباع كتاب الله تعالى ، والتأسي بسنة نبيه المطهرة ، ثم الاجتهاد في الطاعات الظاهرة والباطنة ، وترك المحرمات ما ظهر منها وما بطن ، فالاعتماد على الله والتوكل عليه ، والإخلاص في العبادة أسباب لدفع السوء والفساد عن القلوب ، وتجديد نشاطها ، وشفاء ناجع لكل ما يعتريه من فساد وتكاسل إن شاء الله تعالى » .

ويضيف الشيخ ابن مفلح : « ومن أعظم الأدوية للقلوب التضرع إلى الله سبحانه وتعالى ، لاسيما في أوقات الإجابة ، والأماكن المعظمة في كشف ذلك

---

(١) رواه مسلم / باب الإيمان / ٢٦

(٢) رواه البخاري ومسلم / باب الورع وترك الشبهات ٢٤٧ .

وإزالته والعافية منه ، فإنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير ، وقد أحاط بكل شيء علماً » .

ومن ذلك أيضاً تربية النفس على الزهد في هذه الدنيا وملذاتها ، فما أتفه هذه الدنيا وما أحقرها . إن لم يغتنم الإنسان منها ويتزود بصالح الأعمال ! فهي دار الغرور يغتر بها الجاهلون ، ويركن إليها الغافلون ، يقول الشيخ ابن مفلح : « فكيف يؤثر عاقل لذة ساعة على فوات نعيم من صفته : « ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؟ » .

ولذلك أوضح لنا رسول الله ﷺ تفاهة هذه الدنيا ، وأنها لا تساوى عند الله شيئا فقال ﷺ : « **لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها جرعة ماء** » .[1] ولهذا قال ﷺ : « **أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله** » .[2]

ولتكن نصيحة المربي الكريم سيد الخلق محمد ﷺ التى نصح بها عبد الله بن عمر هادياً يهدينا إلى طريق الحق والرشاد . فعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال : « **كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور** »[3] .

فما أجلها من نصيحة ، وما أكرمها من مقولة ، إنها نصيحة غالية تلامس قلب الإنسان المؤمن الذى غمر اليقين نفسه ، فتتحرك فيه بواعث الخير ، وتتفجر فيه ينابيع الأمن والطمأنينة ، فيبرأ قلبه من كل الأسقام ، وتزكو نفسه ويصفو فؤاده فينضوى تحت راية الإيمان في طمأنينة ، وبشاشة قلب ، ويندرج في مدارج الرقى والكمال إلى أجواء قدسية من حب الخير والفضيلة

---

(١) رواه ابن ماجة والترمذي / الزهد / ١١٣

(٢) مسند الإمام أحمد ٤ /٢٨٦ .

(٣) رواه البخاري / الرقائق ٣ ، والترمذي / باب الزهد ص ٣٥ .

والبحث عما تتوق إليه القلوب المؤمنة من صالح الأعمال .

وإذا ما أردنا نقاء القلوب ، وصفاء السريرة ، فعلينا أن نلتزم بتلك النصائح الغالية التى نصح بها رسول الله ﷺ أبا هريرة رضى الله عنه :

« اتق المحارم تكن أعبد الناس »

« وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس »

« وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا »

« وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما »

« ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » (١)

---

(١) رواه الترمذي / الزهد ص ٢ .

٦ - حكم مجالسة أهل المعاصى :

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **إنما مثل الجليس الصالح ، والجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا منتنة** » .[1]

هذا التوجيه النبوى يدعونا إلى مصاحبة المؤمنين الذين يراقبون الله في أقوالهم وأفعالهم ، فصحبتهم دواء للقلوب ونحن معهم في ربح دائم ، كما يوجه أنظارنا إلى البعد عن مجالسة أهل المعاصى وأرباب الفواحش ، لأن الإنسان بمجالستهم يكون في خسران دائم فهم كالحداد الذى ينفخ في كيره ، إن لم يحرق بناره أحرقك بشراره ، ولذلك يقولون : « من جالس جانس » ؛ لأن النفس تقتبس الخير أو الشر من جلسائها ، ولقد صدق ابن مسعود - رضى الله عنه - حين قال : « المرء بخدنه » .

ولذلك أمرنا الله سبحانه وتعالى بمصاحبة الصالحين ، فقال جل شأنه :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [2]

وما دامت مجالسة أهل المعاصى لا تأتى إلا بالشر ، ولاتنتج إلا المشاركة في المعاصى ، فالشيخ ابن مفلح يقول : « إن علماءنا يرون مجانبتهم وأبعد عنهم » ، ويورد آراءهم في ذلك تفصيلاً :

فالإمام أحمد بن حنبل يرى وجوب هجر من كفر ، أو فسق ببدعة ، أو دعا إلى بدعة مضلة أو مفسقة على من عجز عن الرد عليه ، أو خاف الاغترار به

---

(١) رواه البخاري / باب الذبائح ص ٣١ .

(٢) الآية ١١٩ من سورة التوبة.

والتأذى دون غيره ، ويرى الإمام أحمد وجوب ترك الكلام والسلام مطلقاً على كل مرتكب للمعصية ، ليكون ذلك كسراً له واستصلاحاً لأمره . وقيل يجب هجره مطلقاً إلا من السلام بعد ثلاثة أيام ، أى أنه يكتفي بالسلام عليه بعد هجره ثلاثة أيام .

ويرى آخرون أنه يسن هجر من جهر بالمعاصى حتى يقلع عنها ، وإلا فكيف يتبين للرجل ما هو عليه إذا لم ير منكراً ولا جفوة من صديق .

ويرى ابن قيم أن هجران أهل البدع كافرهم وفاسقهم والمتظاهرين بالمعاصى وترك السلام عليهم فرض كفاية ومكروه لسائر الناس

أما الإمام ابن تيمية فلا يكتفي بالهجر ويرى أن المستتر بالمنكر ينكر عليه فعله فإن لم ينته فعل ما ينكف به إذا كان أنفع في الدين أما المظهر للمنكر فيجب أن يعاقب علانية بما يردعه عن ذلك وينبغي لأهل الخير أن يهجروه ميتا إذا كان فيه كف لأمثاله فيتركون تشييع جنازته .

وهذا فيما أرى موقف إيجابى تجاه من يرتكبون المعاصى ، فلو أنكرنا عليهم أفعالهم وقدمنا إليهم النصيحة والتوجيه واتبعنا معهم ما يدفع بهم إلى الإقلاع عن تلك المعاصى والتخلص منها بالموعظة الحسنة ، والحوار الهادىء لكان ذلك أنفع لهم وأجدى للمجتمع الإسلامى الذى يقوم على التناصح والتواصل وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : « **الدين النصيحة ، قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** » [1] .

---

(١) رواه البخاري / باب الإيمان ٤٢ .

٧ - بيوت لا تدخلها الملائكة :

نهى رسول الله ﷺ عن التصوير والتجسيم ، ونفرنا من ذلك فقال : « **من صور صورة كُلِّفَ أن ينفخ فيها الروح ، وليس بنافخ وعذب** ».[1] وروى الترمذي عن جابر قال : نهى رسول الله ﷺ عن الصور في البيت ونهى أن يصنع ذلك . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا جاءه فقال : إني أصور هذه التصاوير فأفتني فيها ، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **كل مصور في النار ، يجعل الله له بكل صورة صورها نفسا تعذبه في جهنم ، فإن كنت لا بد فاعلاً فاجعل الشجر وما لا نفس له** ».[2]

وذلك لما فيه من التشبه بأهل الشرك ، وعودة إلى الوثنية القديمة ، حيث كان الوثنيون ومقلدوهم من أهل الكتاب قد عظموا الصور والتماثيل واتخذوها معبودات من دون الله .

فلما جاء الإسلام نهى عن شبهة التشبيه بهم ، ونهى رسول الله ﷺ عن التصوير أو تعليق الصور في البيوت ، ووجهنا إلى أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صور حيث قال : « **لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة** ».[3] والملائكة هم رسل الرحمة من الله ، وتحل البركة أينما حلوا . وبيت لا تدخله الملائكة بيت خرب خال من رحمة الله .

وفي الصحيحين : « **أن عائشة رضي الله عنها اشترت نمرقة - وسادة - فيها تصاوير فلما رآها رسول الله ﷺ قام على الباب فلم يدخل ، قالت : فعرفت في وجهه الكراهية ، فقلت : يا رسول**

---

(١) رواه البخاري ٤ / ٤٥ .

(٢) رواه البخاري ومسلم ٤ / ٤٦ .

(٣) رواه مسلم ٣ / ٥٥٢ .

الله أتوب إلى الله وإلى رسوله ، ماذا أذنبت ؟ قال : فما بال هذه النمرقة ؟ فقالت : اشتريتها لتقعد عليها وتوسدها ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم أحيوا ما خلقتم ».[١] وقال : « **إن البيت الذى فيه الصور لا تدخله الملائكة** ».[٢]

كما ذكر الشيخ ابن مفلح في الفصل الذى عقده في : (كراهية تعليق الأجراس والأوتار على الدواب والبهائم وما تبعد عنه الملائكة) ذكر حديث رسول الله ﷺ عن أبى هريرة مرفوعاً : « **الجرس من مزامير الشيطان** ».[٣] ولذلك فإن الملائكة لا تدخل البيوت التى تعلق فيها الأجراس ، فعن سليمان بن ثابت عن أم سلمة مرفوعاً : « **لا تدخل الملائكة بيتا فيه جرس ولا تصحب الملائكة رفقة فيها جرس** ».[٤]

كذلك فقد نهى ﷺ عن اتخاذ الكلب إلا لضرورة لأن الملائكة تهرب من البيت الذى يقبع فيه الكلب ، فقال ﷺ « **من اتخذ كلباً إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع نقص من أجره كل يوم قيراط** ».[٥] وقيل يجوز اقتناء الكلب لحفظ البيوت ، وهو قول بعض الشافعية .

كذلك فإن الملائكة تتأذى من الإنسان الجنب ، ولذلك يجب أن يسارع الجنب بالاغتسال ، وألا يكسل حتى تحف الملائكة بيته ، ويكون في رضوان الله ، فإن لم يفعل فلا أقل من أن يتوضأ قبل نومه .

---

(١) رواه البخاري ومسلم ٤ / ٤٥.

(٢) رواه البخاري ومسلم ٣ / ٥٥٣ .

(٣) رواه أبو داود / خاتم٦

(٤) رواه مسلم / الطهارة ٣ / ٥٥٤ .

(٥) رواه مسلم ، رواه أحمد في مسنده ٢ / ٤٧٨ .

يقول الإمام ابن تيمية - رضى الله عنه - في المسائل الورعية :

« إن النبى ﷺ أمر الجنب بالوضوء عند النوم » . وقد جاء في بعض الأحاديث إن ذلك كراهة أن تقبض روحه وهو نائم ، فلا تشهد الملائكة جنازته فإن في السنن عن النبى ﷺ أنه قال :

« **لا تدخل الملائكة بيتا فيه جنب** » .(١)

يقول الإمام ابن تيمية : وهذا متفق مع نهيه ﷺ عن لبث الجنب وبقائه في المسجد ، فإن المساجد بيوت الله ، وذلك مثل ما نهى ﷺ عن أكل الثوم والبصل عند دخول المسجد ، وقال : « **إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم** » .(٢)

---

(١) رواه أبو داود / الطهارة ٨٩ .

(٢) رواه مسلم / الطهارة .

٨ - أيهما أفضل : الفقير الصابر ، أم الغنى الشاكر ؟

إذا كان الحرص على المال والسعى إلى جمعه طبيعة بشرية ، فإن الذى يجمع المال من حلال وينفقه في الحلال والطيبات تكون تجارته رابحة وهو في رضوان الله وطاعته إن شاء الله تعالى ، وهذا هو الغنى الشاكر .

أما من لم يصل المال إلى يده إلا بشق الأنفس ولكنه قانع صابر بما قسم الله له ، متوكل عليه سبحانه وتعالى فهو الفقير الصابر وهو في رحمة الله ورعايته .

وقد عقد الشيخ ابن مفلح فصلا في كتابه « الآداب الشرعية » في المفاضلة بين الفقير الصابر والغنى الشاكر ، وأورد رأى العلماء في ذلك فذكر أن الإمام ابن تيمية يذهب إلى أن الأفضلية بين عباد الله جميعهم ميزانها التقوى كما قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ (١) وعلى ذلك فإن استوى الغنى والفقير في التقوى استويا في الدرجة وهكذا .

وقد ارتضى هذا الرأى بعض علمائنا الأفاضل ، قال الحاكم : قلت لعبيد الله قد اختلف الناس في الفقير والغنى أيهما أفضل ، قال : ليس لواحد منهما فضل إنما يتفاضل الناس بإيمانهم ، ثم قال عبيد الله : كلمنى أبو الوليد في فضل الغنى واحتج على بقول النبى : « **أفضل الصدقة ما كان عن ظهر الغنى** » قلت : يعارضه قوله ﷺ : « **أفضل الصدقة جهد المقل** » (٢) .

ثم يقول الشيخ ابن مفلح : إن للإمام أحمد في ذلك قولين وهما روايتان عنه ، ثم ذكر القاضى أبو الحسن أن أصحهما أن الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر .

---

(١) الآية رقم ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) رواه أبو داود ٢ / ١٢ .

وقد ارتضى ابن الجوزى ذلك الرأى ، لكن الأمر عنده في حاجة إلى تفصيل . يقول ابن الجوزى : وأما التفضيل بين الغنى والفقير ، فظاهر النقل يدل على تفضيل الفقير ، لكن لا بد من تفضيل منقول : إنما يتصور الشك والخلاف في فقير صابر ليس بحريص بالإضافة إلى غنى شاكر ينفق ماله في الخيرات أو فقير حريص مع غنى حريص . فلا يخفي أن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص فإن كان الغنى متمتعا بالمال في المباحات فالفقير القنوع أفضل منه .

كذلك فإننا نجد ابن هبيرة الوزير الحنبلى يفضل الفقير الصابر على الغنى الشاكر ويدلل على ذلك بقوله : لو لم يكن في الفقر إلا أنه باب رضاء الله ولم يكن في الغنى إلا أنه سخط الله . لأن الإنسان إذا رأى الفقير رضى عن الله في تقديره ، وإذا رأى الغنى تسخط بما هو عليه فإن ذلك يكفي في فضل الفقير على الغنى .

أما القرطبى فإنه يقول : ذهب قوم إلى تفضيل الغنى لأن الغنى مقتدر والفقير عاجز ، والقدرة أفضل من العجز ، ويدل على ذلك ظاهر قوله ﷺ للفقراء الذين قالوا له : « **ذهب أهل الدثور - أى الغنى والمال** » - بالأجور فقال : « **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** » .[1]

ويمكن أن نعود إلى قول الإمام ابن تيمية الذى جعل التفاضل بين الناس على أساس الصلاح والتقوى ليكون هذا هو المقياس الحقيقى بين الغنى الشاكر والفقير الصابر فإذا تساويا في تقوى الله واختلفا في الفقر والغنى وكان الفقير صابراً والغنى شاكراً فإن ظاهر حديث رسول الله ﷺ السابق يجعل الأفضلية للغنى الشاكر « **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** » ، كما أخبر بذلك المصطفي ﷺ وفي كل خير إن شاء الله .

---

(١) رواه البخاري / الدعوات ١٧ .

٩ - في الطعام والشراب آداب . فما هى ؟

عن المقداد بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما ملأ ابن آدم وعاء شر من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه** » (١) .

في هذا التوجيه النبوى يدعونا معلم البشرية محمد ﷺ إلى الاعتدال في تناول الطعام ، وعدم السرف ، بل إنه يذم الشبع والإفراط في تناول الطعام ، كذلك فقد نهانا القرآن الكريم عن ذلك فقال تعالى : ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ (٢) . فامتلاء البطن شر لما فيه من المفاسد الدينية والدنيوية . فالشبع يورث البلادة ويعوق الذهن عن التفكير الصحيح وهو مدعاة للكسل والنوم الكثير ، ومن نام كثيرا قتل وقته الذى هو رأس ما في الحياة وعصبها فيترتب على ذلك خسران كثير من المصالح الدينية والدنيوية ، ولذلك فقد صدق من قال : « **من أكل كثيرا نام كثيرا وفاته خير كثير** »

والفضيل بن عياض يقول في الأكل الكثير إنه يقسى القلب كما يقسيه كثرة الكلام : ثنتان يقسيان القلب : كثرة الكلام وكثرة الأكل . وكان لقمان عليه السلام يهتم بوصية ابنه بعدم الشبع فيقول له : يا بنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وقد أرشدنا رسول الله ﷺ في هذا الحديث إلى القدر المناسب في الطعام وهو ما يقيم الحياة ويحفظ الصحة ويمكن الإنسان من القيام بواجبه وإن كان لا بد مكثرا فليجعل للطعام والشراب ثلثى المعدة ويترك الثلث الباقى

---

(١) أخرجه الترمذي / الزهد ٤٧ .
(٢) الآية ٣١ من سورة الأعراف .

خاليا حتى يتمكن من التنفس بسهولة . إذ يقول علماء الطب إن البطن إذا امتلأت ضغطت على الحجاب الحاجز فيضغط بدوره على الرئتين فتضيق مجارى التنفس ، والتنفس أحد الأمور الرئيسة في إصلاح الدم الفاسد وتحويله إلى دم صالح تقوم به حياة الإنسان . ولذلك كان لقمان يقول لابنه : يا بنى لا تأكل على شبع فإنك إن تركته للكلب خير لك من أن تأكله » .

وآداب الطعام والشراب كثيرة ، نورد منها بعض ما ذكره الشيخ ابن مفلح في كتابه (الآداب الشرعية) . وفي مقدمة هذه الآداب : أن نسمى الله تعالى عند بداية الأكل والشرب ، كما نتناول الطعام والإناء باليد اليمنى ، ويذكر الشيخ ابن مفلح في هذا الصدد الحديث الذى رواه أحمد عن عائشة - رضي الله عنها مرفوعاً - : « **من أكل بشماله أكل معه الشيطان ، ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان** ».[1] . وذكر ابن عبد البر وابن حزم أن الأكل بالشمال محرم ، لظاهر الأخبار في ذلك ، وإن جاز ذلك لضرورة .

ومن الآداب التى ذكرها الشيخ ابن مفلح أيضا أنه يكره النفخ في الطعام أو الشراب وكذا التنفس في إنائهما ، كما يكره أن يأكل الإنسان مما يلى غيره إذا كان الطعام واحدا فعن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « **إذا أكل أحدكم طعاماً فلا يأكل من أعلى الصفحة ، ولكن ليأكل من أسفلها فإن البركة تنزل من أعلاها** ».[2] ورواه شعبة والثورى عن عطاء ، ورواه أحمد ، ولفظ بعضهم : « **البركة تنزل في وسط الطعام فكلوا من حافتيه ولا تأكلوا من وسطه** »[3] .

كما أن رسول الله ﷺ قد وجه عمر بن أبى سلمة إلى هذه الآداب ،

---

(١) رواه مسلم / باب الأشربة ١٠٤ .

(٢) رواه أبو داود والترمذي / آداب الطعام / ٢١٢ .

(٣) رواه أبو داود والترمذي / آداب الطعام / ٢١٢ .

فقال : « **يا غلام سَمِّ الله وكُلْ بيمينك وكل مما يليك** ».(١) . كذلك يكره أن يأكل الإنسان أو يشرب متكئا أو مضطجعا ، ويسن أن يجلس للأكل على رجله اليسرى وينصب رجله اليمنى أو يتربع .

يقول الشيخ ابن مفلح : « وقد ذكر ابن البنا من أصحابنا أن من آداب الأكل أن يجلس مفترشا وإن تربع فلا بأس ، كما يسن أن يصغر اللقمة ، ويجيد المضغ ، ولا يأكل لقمة حتى يبتلع ما قبلها ، ولا يشرب الماء أثناء الطعام فإنه أجود في الطب كذا قاله ابن الجوزى » .

وإذا شرب الماء فلا يعبه عباً ، ويشرب من الإناء مصاً ، لأنه ﷺ قال : « **إذا شرب أحدكم فليمص الماء مصاً ولا يعبه عباً فإن منه الكباد** ».(٢) أى وجع الكبد ، كذلك عليه أن يشرب الماء مقطعاً ثلاثا ، ويتنفس دون الإناء ثلاثا ، ذلك أروى وأمرى وأبرى كما رواه مسلم ، وعلى المرء كذلك أن ينوى بشربه وأكله التقوى على التقوى ، وطاعة المولى تبارك وتعالى .

هذه هى أهم الآداب في الأكل والشـرب ، وهناك آداب أخرى ذكرها الشيخ ابن مفلح في كتابه القيم (الآداب الشرعية) ، فمن أراد الاستزادة فليراجعها في هذا الكتاب (الجزء الثالث ص ١٦٧ وما بعدها) .

---

(١) رواه البخارى / كتاب الأطعمة ٣ / ٢٩١ .

(٢) رواه مسلم / باب الأشربة / ١٤

[٣]

حكيم العرب

الأحنف بن قيس

هو أبو بحر صخر بن قيس بن معاوية السعدى المنقرى التميمى ، وكان يعرف بالأحنف لأنه كان أعرج من انقلاب ظهر قدمه نحو الأرض ، كان سيد تميم وأحد دهاة الفصحاء الشجعان يضرب به المثل فى الحلم .

ولد فى البصرة ، وأدرك النبى ص ولم يره ، وقد وفد على عمر حين آلت إليه الخلافة فى المدينة وهو ابن عشرين سنة فاستبقاه عمر عاماً ، ثم أذن له فعاد إلى البصرة ، وكتب عمر إلى أبى موسى الأشعرى - والى البصرة حينذاك - : « أما بعد فأدن الأحنف وشاوره واسمع منه » . وقد عمل أبو موسى بنصيحة أمير المؤمنين فاتخذ الأحنف مستشارا له .

وقد شهد الأحنف الفتوح فى فارس وخراسان وسمرقند واعتزل الفتنة يوم الجمل ، ثم شهد صفين مع على رضى الله عنه ، ولما انتظم الأمر لمعاوية عاتبه ، فأغلظ له الأحنف فى الجواب ، فسئل معاوية عن صبره عليه ، فقال : « هذا الذى إذا غضب ، غضب لغضبه مائة ألف من بنى تميم ، لا يدرون فيما غضب » . وقد ولى خراسان ، كما كان صديقاً لمصعب بن الزبير - أمير العراق فى زمنه - فوفد عليه بالكوفة ، فتوفى بها وهو عنده . أخباره كثيرة جداً وخطبه عظيمة ، وكلماته متفرقة فى كتب التاريخ والأدب والبلدان .

وفى الصفحات التالية نعرض لبعض القيم الكريمة والصفات الحميدة والمواقف التى تدل على الأخلاق الفاضلة والسجايا الرفيعة مما تحلى به

الأحنف بن قيس حتى ضرب بسهم وافر فى الحلم والصبر والتواضع ، وذلك غيض من فيض ، مما هو مثبوت من أخبار الأحنف فى كتب التراث مثل : سير أعلام النبلاء للذهبى ، وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ونهاية الأرب للنويرى .

١ - قيل للأحنف بن قيس : « بم سُدت قومك ؟ » قال :
« لو عاب الناس الماء لم أشربه » :

نشأ الأحنف بن قيس فى قومه تميم ، شجاعاً عاقلاً حكيماً ، نافذ البصيرة ميالاً إلى كل ما هو خير ، ربِّى على المروءة والأخلاق الفاضلة ، لا تستهويه سفاسف الأمور ولا المغريات . لذلك فقد احترمه الجميع فى قبيلته ، وقدروا شخصيته الناضجة ، واستمعوا لرأيه ومشورته ونصحه حتى كان سيد قومه ، يسألونه الرأى فى أمورهم ، ويحتكمون إليه فى منازعاتهم ، بل ولا ينفذون أمراً إلا بالرجوع إليه .

وخير شاهد على ذلك ما كان من قومه عندما وصل إلى بنى سعد من تميم - أهل الأحنف وقومه - رسولُ رسولِ الله ﷺ يدعوهم إلى الإسلام ، فقالوا : لا نستطيع أن نبدى رأياً ، أو نعطى حكماً ما لم يستمع الأحنف إليك وإلى ما يدعو إليه محمد بن عبد الله ، فهو مقدمنا وصاحب الرأى فينا ، ولما حضر الأحنف واستعاد من الرجل قوله وبيانه وحاوره وناقشه التفت إلى قومه وقال لهم : « إنه ليدعوكم إلى الإسلام ، وإلى مكارم الأخلاق ، وينهاكم عن ملائمها » . فأسلموا ، وأسلم الأحنف ، فلما بلغ النبى ﷺ ذلك قال : « **اللهم اغفر للأحنف** » .

وقد عرف له الخليفة الثانى عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - قدره ومكانته فكتب إلى أبى موسى الأشعرى والى البصرة حينذاك ، يوصيه بالأحنف قائلا : « أما بعد : فأدن الأحنف وشاوره واسمع منه » . وقد عمل أبو موسى بقول أمير المؤمنين فاتخذ من الأحنف مستشاراً مخلصاً له وناصحاً أميناً .

هذه المكانة التى تبوأها الأحنف عن جدارة فى قومه كان أساسها الالتزام

بالقيم الأخلاقية الكريمة ، والتمسك بتعاليم الإسلام القويمة ، وما عرف عنه من آراء سديدة وجرأة فى الحق ، وما تمتع به من شجاعة طيبة كان فى ذروتها حلمُه الذى طبق الآفاق ، وأصبح المثل يضرب به فى الحلم وسعة الصدر .

وإذا لم تكن نزعة السيادة شيئاً جديداً على العرب ، حيث إنها نزعة طبيعية يتوارثونها عن بعضهم ، فإن سيادة الأحنف بن قيس لم تكن سيادة التعالى والكبرياء والفخر والخيلاء ، والتكاثر بالمال والعدد ، والتطاول بالأنساب والأحساب ، أو يقضى بها العرف الموروث ، ولكنها سيادة من نوع آخر ، سيادة تفرضها الفضائل الإنسانية ، وتقرها المكارم والآداب الإسلامية ، فهى سيادة تفرض على نفسها رعاية القوم والعشيرة ، والشعور بحاجة الصغير قبل الكبير ، والسعى لما فيه خير قومه ، وخفض الجناح للإخوان والضعفاء ، والمشاركة فى السراء والضراء ، وتلزم صاحبها النظر إلى من دونه جميعاً كأنهم عياله وهو مسئول عنهم يرعى مصالحهم ويسعى فى خيرهم .

ولذلك وضع الأحنف بن قيس نصب عينيه الرعاية الكريمة لقومه ، والحرص على إنفاذ مصالحهم ، والعمل على إرضائهم ودفع الأذى عنهم ، والبعد عما يغضبهم ، حتى إن قومه لو عابوا الماء امتنع عن شربه احتراماً لمشاعرهم ، وإبقاءً على مودتهم ، وحرصاً على اجتماع الكلمة ، ونزولاً على رأى جماعتهم .

ولذلك لما سأل معاوية بن أبى سفيان الأحنف : بم سدت قومك ، ولست بأسنهم ولا أشرفهم ؟ . أجابه بقوله : « إنى لا أتكلف ما كفيت ، ولا أضيِّع ما وليت ، ولو أن الناس كرهوا شرب الماء ما طعمته » .

فعشرة المؤمنين ، والإبقاء على مودتهم ، والإغضاء عن هفواتهم خصال تعتمد على الصبر الجميل ، ولذلك نجد الأحنف بن قيس يجيب على رجل سأله : بم سدت قومك ؟ - أراد بسؤاله أن يعيبه - يجيب قائلاً : « بتركى من

أمرك ما لا يعنيني ، كما عناك من أمرى ما لا يعنيك » .

ويوضح الأحنف بن قيس عناصر السيادة بقوله : « من كان فيه أربع خصال ساد قومه غير مدافع : من كان له دين يحجزه - أى يمنعه - وحسب يصونه ، وعقل يرشده ، وحياء يمنعه » .

وكان ابن قيس كذلك ، فهو صاحب دين قويم وحسب كريم ، وعقل واع ، وحياء لا يعدله حياء ، فكان كما قال سفيان عنه : « ما وزن عقل الأحنف بعقل أحد إلا وزنه » .

٢ ـ قال الأحنف : كنا نختلف إلى قيس بن عاصم نتعلم منه الحلم كما نختلف إلى العلماء نتعلم منهم العلم :

قيس بن عاصم بن سنان المنقرى السعدى التميمى هو أحد أمراء العرب وعقلائهم الموصوفين بالحلم والشجاعة والجود ، ساد قومه فى الجاهلية وقد حرم على نفسه الخمر فيها ،

وفد على النبى ﷺ فى وفد تميم فى السنة التاسعة من الهجرة وأعلن إسلامه أمام النبى ﷺ ، ولما رآه النبى ﷺ قال : « **هذا سيد أهل الوبر** » واستعمله على صدقات قومه ، ثم نزل البصرة فى أواخر أيامه ، وروى عن الرسول ﷺ بعض الأحاديث ، وتوفى بالبصرة .

وهو الذى يقول عبدة بن الطيب فى رثائه :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وكان له ثلاثة وثلاثون ولداً ، قال لهم فى مرض موته يوصيهم : « يابنى احفظوا عنى ثلاثاً ، فلا أحد أنصح لكم منى : إذا مت فسوِّدوا كباركم ولا تسودوا صغاركم ؛ فيحقر الناس كباركم وتهونوا عليهم ، وعليكم بحفظ المال فإنه منبهة للكريم ، ويستغنى به عن اللئيم ، وإياكم والمسألة فإنها آخر كسب الرجل » .

وإذا كان الأحنف بن قيس يذهب إلى هذا الرجل ليتعلم منه الحلم ، فما ذلك إلا لما عرف عنه من خلق كريم ، ومسلك قويم ، وحرص على الشمائل والسجايا الرفيعة ، مع ما عرف به الأحنف من الحكمة والحلم والسيادة وكريم الخصال ، وأيضا لما للحلم من أثر فعال فى حياة الناس أجمعين ، فهو السبيل إلى مجاهدة النفس الأمارة بالسوء ، وهو العاصم للإنسان من التردى فى مهاوى الشيطان ، وهو علاج القلوب الواغرة ، وصلاح أمرها ، وشفاء ناجع

لكل ما يعترى النفوس من فساد وأهواء .

ولذلك نجد المصطفى ﷺ يقول : « **الا أنبئكم بما يشرف البنيان ، ويرفع الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « تحلم على من جهل عليك ، وتعفوا عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك** » .(١)

ويقول ﷺ : « **وجبت محبة الله لمن غضب فحلم** » ، ويقول : « **إن الله ليحب الحليم الحيي ، ويبغض الفاحش البذيء** » ، ويقول : « **إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم** » .(٢)

ولهذا عرف المسلمون الأوائل قيمة الحلم ، وماله من أثر فعال فى النفوس ومعاملة الناس .

وقد ضرب معاوية بن أبى سفيان بسهم وافر فى الحلم ، ومن دلائل حلمه مع ما كان له من بأس وسلطان ، أنه صعد المنبر يوماً ، فخطب الناس ؛ فقال له رجل : « كذبت » ، فنزل مغضباً ، فدخل منزله ، ثم خرج على الناس تقطر لحيته ماء ، فصعد المنبر فقال : « **أيها الناس إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان من النار ، فإذا غضب أحدكم فليطفئه بالماء** » ، ثم أخذ فى الموضع الذى بلغه من خطبته . وهو في هذا الموقف يهتدى بهدى رسول الله ﷺ الذى يقول : « **إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ** » (٣) ، ويقول أيضاً : « **ما تجرع عبد جرعة أفضل عند**

---

(١) رواه البخاري / باب حسن الخلق ٢٥٦ .

(٢) رواه أبو داود / باب الحلم والأناة / ٢٥٨ .

(٣) رواه أحمد ٣ / ٢١٥ .

الله من جرعة الغيظ ، يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى » (١)

وكان الأحنف بن قيس قد شهد مع الإمام على وقعة صفين ، فلما استقر الأمر لمعاوية دخل عليه الأحنف يوماً ، فقال له معاوية : « والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة فى قلبى إلى يوم القيامة » أى وجع فى قلبي من الغيظ ونحوه ، فقال له الأحنف ـ وكان سيداً فى قومه تميم ـ : « يا أمير المؤمنين لِمَ ترد الأمور على أعقابها ؟ ، أما والله إن القلوب التى أبغضناك بها لبين جوانحنا ، والسيوف التى قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، ولئن مددت بشبر من غدر ، لنمدن باعاً من ختر [أى غدر] ، ولئن شئت لتستصفين كدر قلوبنا بصفو حلمك » . قال معاوية : « فإنى أفعل » .

وقيل للأحنف : بما أوتيت ما أوتيت من الحلم والوقار ؟ قال : (بكلمات سمعتهن من عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، سمعته يقول : « يا أحنف من فرح استخف به ، ومن أكثر من شيء عُرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ») . فما أجل هذا التوجيه الكريم من خليفة رسول الله ﷺ وما أعظمه من علاج للقلوب ، وجلاء للنفوس .

---

(١) رواه أحمد ٣ / ٢١٧ .

٣ - كان الأحنف بن قيس لا يحرص ولا يجهل ولا يدفع الحق :

جاء في الطبراني أن رسول الله ﷺ قال : « **ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه إلى هدى ، أو يرده عن ردى ، وما استقام دينه حتى يستقيم عقله** » .

وقال ﷺ أيضاً : « **إن الله ، وملائكته ، وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت في جوف البحر ليصلون على معلم الناس الخير** » .(١)

وكان الأحنف بن قيس من أعظم الناس خلقاً ، يحرص على توجيه الناس وإرشادهم لما فيه خيرهم وصلاحهم ، ويدعوهم إلى كمال الخلق ، وجميل الصفات ويغرس في نفوسهم حب الآخرين ، بالتربية الفضلى ، والسلوك الأقوم الذي كان يلتزم به بينهم ، والحكمة البالغة التي كانت صفو نفسه ، وملاك أمره فكان يضبط سلوكه ضبطاً محكماً ؛ فيتكلم بقدَر ، ويتصرف بحذَر ، ويتغاضى عن الهفوات ، ويعرف الحق لأصحابه ، وينصف الناس من نفسه ، ولا يماري في الحق ولا يجادل فيه .

ولذلك قيل عنه : « إنه كان لا يحرص ولا يجهل ولا يدفع الحق ، وإذا نزل به خضع لذلك » . وعرف الناس عنه هذه الصفات الكريمة فهو زاهد فيما في أيدي الناس ، قانع بما في يده ، راضٍ بما أفاء الله به عليه ، جواد سمح ، صاحب مروءة ، وأهل نجدة .

يقول الأحنف : « ما رُدِدت عن حاجة قط » ، فقيل له : ولم ؟ قال : « لأني لا أطلب المحال » .

---

(١) رواه الترمذي / باب العلم / ٩١

كما كان صاحب خلق كريم يتحلى بالصبر ويتزود بالحكمة ، ويتخذ الحلم خلقاً ومنهجاً ، يبتعد عن المثالب والمعايب التى تنال من أخلاقه ، كالسفه ، والغضب ، والنزق ، والطيش .

ولذلك نراه يقول : « لا يتبين حلم الرجل حتى يغضب ، إن الحلم لا يكون إلا عند الغضب » ، ويقول : « ليس الحلم أن تظلم حتى إذا قدرت انتقمت ، ولكنه إذا ظلمت فحلمت ، ثم قدرت فعفوت » .

كما أنه حريص على إحقاق الحق وإقراره ، حتى فى مواجهة الخلفاء والأمراء ، لا تأخذه فى ذلك لومة لائم .

ولذلك نراه يقول : « من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء ، ومن غص بالماء فلا مساغ له ، ومن خانه ثقاته فقد أُتى من مأمنه » .

ونراه عندما يشاوره معاوية بن أبى سفيان فى استخلاف يزيد ابنه يسكت فيقول له معاوية : « ما لك لا تقول ! » ، فيقول الأحنف : « إن صدقناك أسخطناك ، وإن كذبناك أسخطنا الله تعالى ، وسخط أمير المؤمنين أهون علينا من سخط الله » فيقول له معاوية : « صدقت » .

وهذه هى أخلاق الإنسان المسلم ، وما دعا إليها ديننا الحنيف ، وما سار عليه سلفنا الصالح ، كتب أبو الدرداء إلى معاوية : « أما بعد : فإنه من يلتمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس » .

وقد شتم رجلٌ الأحنفَ بن قيس ، وجعل يتبعه حتى بلغ حيَّه ، فقال الأحنف : « يا هذا إن كان فى نفسك شيء فهاته وانصرف ، لا يسمعك بعض جهالنا ؛ فتلقى ماتكره » .

والحلم على الجهال وسعة الصدر من صفات أهل الجنة .

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ :

« إذا جمع الله الخلائق نادى مناد : أين أهل الفضل ؟ قال : فيقوم ناس وهم يسير ، فينطلقون سراعا إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون : إنا نراكم سراعاً إلى الجنة ، فمن أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الفضل ، فيقولون : وما فضلكم ؟ فيقولون : كنا إذا ظلمنا صبرنا ، وإذا أسيء إلينا حلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة ، فنعم أجر العاملين » .[1]

جعلنا الله من الصابرين المحتسبين .

---

(١) رواه النسائي / باب الحلم ٤٧ .

٤ ـ كان الأحنف بن قيس أعظم الناس سلطاناً على نفسه :

إن الدين الإسلامى قد دعا إلى مجاهدة النفس الأمارة بالسوء عن طريق التربية الفضلى والسلوك الحميد ، كمقاومة الطمع بالقناعة ، والعداوة بالود ، والبخل بالبذل والعطاء ، والعذر بالوفاء ، والجهل بالحلم ، وتحويل أطماع النفس إلى ما عند الله من أجر عظيم لأهل طاعته ، ومقاومة الشهوات بالصبر ، وإطماع النفس بما عند الله من أجر ، وتغذيتها بما أحل الله ، وكفها عما حرم الله .

وكان الأحنف بن قيس من حكماء العرب المشهورين بمجاهدة النفس ، ومقاومة أطماعها وشهواتها .

فعن المعافى بن زكريا : أن خالداً بن صفوان قال لهشام بن عبد الملك : « كان الأحنف بن قيس أعظم من رأينا وسمعنا ـ غير الخلفاء ـ سلطانا على نفسه فيما أراد حملها عليه وكفها عنه . وقد يكون الرجل عظيم السلطان على نفسه ، ولا يكون بصيراً بالمحاسن والمساوىء ، ولم ير ولم يسمع بأحد أبصر بالمحاسن والمساوىء من الأحنف ، ولا يحمل السلطنة إلا على حسن ، ولا يكفها إلا عن قبيح » .

ثم قال : « وقد يكون الرجل عظيم السلطان على نفسه بصيراً بالمحاسن والمساوىء ولا يكون حظيظا ـ أى صاحب حظ ـ فلا يفشو له ذلك فى الناس فلا يذكر به » .

وقيل لرجل : صف لنا الأحنف » .

فقال : « ما رأيت أحداً أعظم سلطاناً على نفسه منه » .

وقيل له : « إنك تكثر الصوم وإن ذاك يرق المعدة » .

فقال : « إنى أعده لسفر طويل » ، وكان عامة صلاته بالليل ، وكان عامة صلاته الدعاء .

وهذا هو زاد المؤمنين الصالحين الذين امتدحهم رب العزة بقوله :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (١)

فالليل سكون وهدوء ، وفى الهدوء تركيز وصفاء ، والناس نيام ، وفى ذلك بعد عن الرياء والمباهاة . والليل خلوة مع الله ، وفى الخلوة قرب ، وأنس ، ومناجاة ، وفى قيام الليل مجاهدة ، وتقوية للإرادة والعزيمة ، ومغالبة الشيطان وترويض للنفس على الخضوع .

كما كان الأحنف بن قيس كثير النظر فى المصحف ، ومن دعائه : « اللهم هب لى يقينا تهون به علىّ مصيبات الدنيا » ، وكان يقول : « ثلاث فىّ ما أذكرهن إلا ليعتبر بهن معتبر : ما أتيت باب السلطان إلا أن أدعى إليه ، ولا دخلت بين اثنين حتى يكونا هما يدخلانى ، وما أنكر أحداً بعد أن يقوم من عندى إلا بخير » .

---

(١) الآية رقم ١٦ من سورة السجدة .

٥ - قال الأحنف : « ما نازعني أحد قط إلا أخذت في أمري بثلاث خلال : إن كان فوقي عرفت له قدره ، وإن كان دوني رفعت قدري عنه ، وإن كان مثلي تفضلت عليه » :

يقول المصطفى ﷺ : « **لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها** » .(١)

والأحنف بن قيس ممن آتاه الله الحكمة ، فهو يقضي بها ويعلمها ، حتى تبوأ المكانة الرفيعة في قومه ، وأصبح سيداً مطاعاً فيهم .

وهو في معاملاته مع الناس لا يتخلى عن حكمته ودماثة خلقه ، ولا يجعل للهوى والجهل سلطانا على نفسه ، بل إنه مهما كان الأمر لا يخرج عن حلمه ، ولا يستسلم لغضبه ، ولا يستثيره خطأ الآخرين أو جهلهم ، بل إنه يعرف لأهل الحقوق منازلهم ، ويعطي كل ذي فضل فضله ، ويسع الجميع بفضله وسعة صدره .

فإذا اختلف مع أحد في رأي ، أو نازعه في أمر ، فإنه يبتعد كل البعد عن أن يهينه ، أو يؤذيه أو ينال منه ، ولكنه يتعامل مع من يكبرونه بالخلق الإسلامي الكريم الذي يقضي بأن يوقر الصغير الكبير ، ويحفظ للناس أقدارهم ، وينزلهم منازلهم فلا يرفع صوتا ، ولا يسفه رأيا ، ولا يقلل من قدر أحد بل يجادل في أدب ويناقش في تواضع . أما إن كان المختلف معه في الرأي دونه قدراً أو سنا ، فإنه لا يزدريه ولا يحتقره ، بل إنه يعطف عليه ، ويتجمل معه في الكلام ، ويأخذه باللين والملاطفة ، فإذا كان مثله في العمر

---

(١) رواه البخاري ومسلم / باب البر ٣٥٢ .

والمنزلة ، فإنه يعلن احترامه لرأيه ، ونزوله عند قوله ، فالاختلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية كما يقولون ، والإسلام لا يمنع الاختلاف فى الرأى بين المسلمين ، لأن ذلك أمر تقتضيه الفروق الشخصية بين الأفراد ، ولكن ذلك لا يستوجب السخرية من الآخرين ، أو الضحك والاستهزاء منهم ، فإن ذلك خلق غير كريم يرفضه الإسلام وينهى عنه .

وحتى يبقى التماسك قوياً فى علاقات المؤمنين بعضهم ببعض ، يجب أن يبتعدوا عن أن يهين بعضهم بعضاً ، أو أن يؤذيه بما يقلل من الاعتبار الإنسانى لكل منهم ، وقد نهى الإسلام عن ذلك نهياً قاطعاً ، حيث يقول المولى عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِن قَومٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُم وَلاَ نِسَاءٌ مِن نِسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُم وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١)

وقد روى أن النبى ﷺ قال : « **الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد ، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل** » . (٢)

وللأحنف بن قيس العديد من المواقف الكريمة التى تنم عن خلق رفيع ، وهمة عالية ، وقدرة على مواجهة المصاعب ، والتغلب عليها ، بالحلم ، والأناة ، وكريم الخصال .

---

(١) الآية رقم ١١ من سورة الحجرات .

(٢) رواه البخاري في باب الأشربة ص ٢٢٩ .

فقد شتمه رجل ، فقام إلى منزله ، فتبعه الرجل يسبه ، ويشتمه ، حتى بلغ منزله ، فالتفت إليه الأحنف ، وقال له : « حسبك الان » ثم دخل ، وقال : « وجدت الحلم أنصر لى من الرجال » .

وجاءه رجل فشتمه ، فسكت عنه ، فأعاد الرجل ، وألح ، والأحنف ساكت ، لا يتكلم ، فقال الرجل : « والهفاه ، ما يمنعه من الرد إلا هوانى عليه ! » .

ومن حكمه السائرة : « ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة : شريف من دنيء ، وبر من فاجر ، وحليم من أحمق » .

وكان يقول : « احتلموا لمن أدل عليكم ، واقبلوا عذر من اعتذر إليكم » .

بهذه الأخلاق الكريمة عرف الأحنف بن قيس ، ولذلك كان من حلماء العرب وحكمائهم المشهورين .

٦ - قال الأحنف :

« لا تكن على الإساءة أقوى منك على الإحسان » :

إن العفو عند المقدرة من أرقى درجات الإيمان ، وقد حث عليه الكتاب والسنة :

يقول الله تعالى : ﴿ فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾ (١)

ويقول تعالى : ﴿ وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ (٢)

ويقول تعالى مخاطبا نبيه ﷺ : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾(٣)

ويقول جل شأنه : ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ (٤)

وقد كان الرسول ﷺ في أعلى درجات التسامح ، والعفو عن الجاهلين ، وامتلاك النفس عند الغضب ، وسيرته العطرة مليئة بالمواقف العظيمة التي كان الصفح والحلم فيها السمة البارزة ، والمنهج الواضح ، ولذلك أمرنا الله تعالى

---

(١) الآية رقم ١٣ من سورة المائدة .

(٢) الآية رقم ٢٢ من سورة النور .

(٣) الآية رقم ١٥٩ من سورة آل عمران .

(٤) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة فصلت .

بالاقتداء به ﷺ فى طيب شمائله وعريق خلاله فقال :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (١)

وقد اهتدى بهذا الهدى الكريم صحابة رسول الله ﷺ وعملوا به فكان خلقا ومنهجا لهم . فقد كان أبو بكر رضى الله تعالى عنه مثلا فى العفو والرحمة والصفح والمغفرة ولين الجانب ، قال له رسول الله ﷺ : « مثلك يا أبابكر مثل إبراهيم قال : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣)

وروى عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم بصفحة فيها مرقة حارة وعنده أضياف فعثرت فوقعت المرقة عليه ، فغضب ميمون ، وهَمَّ بضربها فقالت له الجارية : يقول الله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ (٤)
فقال لها : كتمت غيظى ، فقالت : اعمل بما بعده ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ (٥)
فقال : قد عفوت عنك ، فقال الجارية : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٦)
فقال ميمون : قد أحسنت إليكِ فأنتِ حرة لوجه الله .

وكان الأحنف بن قيس ممن يتسمون بالحكمة ، ويتخلقون بصفة الحلم ،

---

(١) الآية رقم ٢١ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية رقم ٣٦ من سورة إبراهيم .

(٣) الآية رقم ١١٨ من سورة المائدة .

(٤) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران .

(٥) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران .

(٦) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران .

ولذلك يروى عنه أنه حدث معه مثل ما حدث مع ميمون وجاريته ، فعفا عن غلامه لوجه الله تعالى .

ومن أقواله المشهورة : « لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان ، ولا إلى البخل أسرع منك إلى البذل ، واعلم أن لك من دنياك ما أصلحت به مثواك - أى آخرتك - » .

ويقول ما ادخرت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للأحياء شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوى الأحساب والآداب .

إلا أن هذا العفو والصفح إنما يكون فى حقوق العباد بعضهم مع بعض ، كأن يجهل عليك جاهل أو يسيء إليك فى معاملة ، أو ينالك بسوء فى غيبتك ، أما حقوق الله تعالى فلا عفو ولا صفح فيها .

ولذلك يروى عن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : « **ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً** » .(١)

كما يروى عنها أنها قالت : « **ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شىء قط ، إلا أن تنتهك حرمة الله ؛ فينتقم ، وما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده ، ولا امرأة ولا خادماً ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله تعالى** » .(٢)

ولما كانت سيئات الغضب كثيرة ، ونتائجه الوخيمة أكثر ، كان ضبط النفس عند ثورانها دليل قدرة محمودة وتماسك كريم ، وكذلك فإن عشرة المؤمنين ، والإبقاء على مودتهم ، والإغضاء عن هفواتهم خصال تعتمد على

---

(١) رواه البخاري في باب المناقب ٧١

(٢) رواه مسلم / حسن الخلق ٩٢ .

الصبر الجميل والعفو عن الناس وامتلاك النفس عند الغضب من أعظم العبادة

وقد عد القرآن الكريم هذه الشمائل الرفيعة طريق الفلاح التى تسرع بصاحبها إلى الجنات العلى فقال :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١)

ويقول المصطفى ﷺ : « **وجبت محبة الله لمن غضب فحلم** » .(٢)

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على سواه** » .(٣)

---

(١) الآيتان ١٣٣ ، ١٣٤ من سورة آل عمران .

(٢) رواه مسلم في باب البر / ٤٣٠ .

(٣) رواه البخاري / باب الرفق ٣٧٦ .

٧ - قال الأحنف : « لا خير فى حياة إلا بصحبة وأمن » :

إن أعباء الحياة جسام ، والمتاعب تنزل بالناس فى تلاحق وتتابع ، والإنسان وحده أضعف من أن يقف طويلاً تجاه هذه الشدائد ، ولئن وقف فإنه يبذل من الجهد ما كان فى غنى عنه لو أن له إخوة وأصدقاء ظاهروه ، ووقفوا بجانبه يشدون من أزره ويشاركونه أمره . ولذلك كان التعارف والتآخى أساسىْ العلاقات البشرية وقد قيل : « المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه » .

ودينا الإسلامى يدعو إلى الأخوة التى تؤلف أتباعه وتجعل منهم على اختلاف الأزمنة والأمكنة وحدة راسخة ، وهذه الأخوة هى روح الإيمان الحى يقول رسولنا الكريم ﷺ : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً** » (١)

فالأخوة فى الله نعمة كبرى وزاد وافر متجدد على الطريق ، وقد من الله تبارك وتعالى على المؤمنين بهذه النعمة وهو يدعوهم إلى الوحدة ، وعدم التفرقة فى قوله تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾(٢)

وهى نعمة لا تشترى بالمال أو الأعراض الدنيوية ، ولكنها تتم بفضل الله تعالى وقدرته . يقول الله تعالى : ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (٣)

---

(١) رواه البخاري في باب المظالم ، والترمذي ص ٢١٢ .

(٢) الآية رقم ١٠٣ من سورة آل عمران

(٣) الآية رقم ٦٣ من سورة الأنفال .

ورابطة العقيدة الإسلامية هى أقوى الروابط على الإطلاق ، فأواصر الأخوة فى الله هى التى جمعت أبناء الإسلام أول مرة وأقامت دولته ، ورفعت رايته ، وعليها اعتمد رسول الله ﷺ فى تأسيس أمة صابرت ودحضت هجمات الوثنية الحاقدة وسائر الخصوم المتربصين .

والصاحب هو العضد الأقوى والساعد الأيمن للمرء فى حياته ، وما ينتابه فى ملماته وسرائه وضرائه ، والعاقل من ينتقى أصحابه ويختار جلساءه ، وينتخبهم من ذوى السيرة المحمودة والعقل .

يقول الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه : « لولا القيام بالأسحار وصحبة الأخيار ، ما اخترت البقاء فى هذه الدار » .

ويقول ﷺ : « **أوثق عرى الإيمان : الحب فى الله والبغض فى الله** » .(١)

ويقول ﷺ : « **إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك أما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تشم منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تشم منه ريحا خبيثة** » (٢)

ويقول أبو العتاهية :

أصحب ذوى الفضل وأهل الدين   فالمرء منسوب إلى القرين

ويقول الشاعر :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه   والمرء يصلحه الجليس الصالح

فالذين يعيشون فى ظل الحب والأخوة فى الله يحسون بسعادة وراحة

---

(١) رواه البخاري ومسلم / الحب في الله / ١٠ .

(٢) رواه البخاري وأحمد / المصاحبة / ٣١٠

نفسية لا يحظى بمثلها من يجتمعون على عرض من أعراض الدنيا ، والمرء كثير بإخوانه فهو يشعر بالراحة والأمن بارتباطه بإخوانه ، قليل بنفسه يشعر أنه لا أمن ولا استقرار له لأنه وحده شيء لا يذكر .

فالصحبة الصالحة تضاعف من قدرات الفرد وطاقاته ، فحيثما يفكر فى أمر فكأنما يفكر بعقول إخوانه جميعا لأنه يسترشد بآرائهم وحينما يقوم بعمل فهم جميعا عون له بطاقاتهم وخبراتهم .

ما أعظم الزاد الذى يحظى به المرء فى الصحبة الصالحة ، حينما يدعو له إخوانه بظهر الغيب بدعوات صالحات ، وهى دعوات مستجابة كما أخبرنا بذلك الحبيب المصطفى ﷺ .

وقد عرف حكيمُ تميم الأحنفُ بن قيس ذلك كله وما للصحبة من خير على الإنسان ولذلك نجده يقول : « لا خير فى حياة إلا بصحبة وأمن » .

ويأخذ فى توجيه الناس وإرشادهم إلى أهمية الصحبة وما يترتب عليها من خير فيقول : « أطع أخاك وإن عصاك ، وصله وإن جفاك ، وأنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك . واعلم أن صحبة الجاهل شؤم ، واعلم أن قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل . ما أقبح القطيعة بعد الصلة ، والجفاء بعد اللطف ، والعداوة بعد المحبة » .

وقال ينصح قومه : « يا بنى تميم تحابوا تجتمع كلمتكم . وتباذلوا - ابذلوا الخير - تعتدل أموركم ، وابدءوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم » .

الخاتمة

أيها القارئ الكريم ....

لعلك بعد أن تصفحت هذا الكتاب واطلعت على ما تضمنه من آراء لعالمين جليلين من علماء المسلمين وحكيم من حكماء العرب الأفذاذ وغيرهم ممن عاصروهم قد استفدت من هذه الآراء بالنفع فى دينك والفائدة جليلة فى دنياك فما قدمناه لهؤلاء الأعلام إنما هى آراء واجتهادات ونصائح عظيمة ترتبط ارتباطاً قوياً بواقعنا الذى نعيشه - على الرغم من صدورها فى أزمنة سحيقة - تترجم عما يختلج فى نفس الإنسان المعاصر وتجيب عما يشغل فكره ، فكثير منا فى حاجة إلى التعرف على رأى الدين فيمن يصبح معسراً ولا يستطيع الإنفاق على ذويه أو زوجته ، ولماذا كان عمر بن عبد العزيز يتشدد فى اختيار القضاة ، وما الحكم إذا أفسدت الغنم زرع الآخرين ، وهل يصح الزواج بدون ولى للزوجة ، وما الحكم فيمن يصلى بعد آذان المغرب وحين تشرق الشمس ، وما حكم التفقه فى الدين ، وهل طاعة الوالدين لا حدود لها ؟ وما حكم مجالسة أهل المعاصى ، وما آداب الشراب والطعام إلى غير ذلك عن الشيخين الجليلين من فتاوى وأحكام .

كما تجد أيها الأخ العزيز فى هذا الكتاب زاداً روحياً من النصائح التى صدرت عن حنكة وطول تجربة من حكيم شهد له الجميع بالتفوق فى النصيحة والقول الصائب . ولهذا ساد قومهم حتى أنهم لم يبرموا أمراً إلا بعد أن يعرضوه عليه ويدلى برأيه فيه ، فكيف ساد هذا الرجل قومه؟ وما الصفات التى امتاز بها عما سواه حتى كانت له هذه

السيادة ؟ وهل يستطيع المرء منا أن يكون له مثل ما كان للأحنف ابن قيس ، أو أنه كان فريداً وحده فيما وصل إليه واتصف به ؟ الإجابة الشافية عن هذه التساؤلات تأتينا واضحة جلية فى نصائحه الغالية وتوجيهاته السديدة التى نتزود بها وترتاح إليها النفوس وتقبل عليها فى لهفة وشوق لأنها زاد للروح ، وما أغلى هذا الزاد الذى نحن فى أمس الحاجة إليه فى حياتنا المعاصرة .

ونحن إذ نقدم إليك - إيها القارئ الكريم - هذا العمل الذى حرصنا فيه على العرض الأمين لآراء الفقيهين الجليلين ومعاصريهما وما صدر عنهم من فتاوى وأحكام فى المسائل التى عرضنا لها بالإضافة إلى تلك النصائح والحكم الفريدة التى سجلتها كتب التراث الإسلامى لشيخ الحكماء الأحنف بن قيس لنرجو أن يكون فى ذلك كله النفع والفائدة إن شاء الله تعالى .

وإلى لقاء قريب مع الكتاب الثالث من هذه السلسلة : "الإنسان وقضايا الإنسان المعاصر" وهو بعنوان "فى رحاب الكتاب والسنة " وهو معايشة إيمانية لبعض آيات من الذكر الحكيم ومجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة ، نرجو الله أن ينفع بها وأن يجعل هذه الأعمال فى ميزان حسناتنا يوم تجد كل نفس ما عملت فى خير محضراً ..".

تقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال ووفقنا إلى ما فيه الخير والرشاد أنه نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

أ.د/ حسن أحمد أبو أحمد الكبير

الفهرست